الفصل الأول

حركة البعث الوطني بعد الاحتلال

أ ـ انبعاث الحركة الوطنية في مصر بعد هزيمة الثورة العرابية.

٢ ـ مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطني.

٣ ـ محمد فريد وزعامته للحزب الوطني.

٤ ـ الزعامة الوطنية بين مصطفى كامل ومحمد فريد.

ا – انبعاث الحركة الوطنية في مصر بعد هزيمة الثورة العرابية

ظروف تولية عباس الثاني الخديوية :

بعد ضرب الثورة العرابية صفيت الحركة الوطنية، و أصبحت الحياة السياسية في مصر تدور حول الخديوية من ناحية وسلطات الاحتلال من ناحية أخرى وظل هذا الموقف سائدا في السنوات الأولى للاحتلال ، وفي يناير ١٨٩٢ اشتد المرض بالخديوي توفيق حتى بلغ مرحلة الخطر في وقت كان فيه الموقف في مصر دقيقا فسلطة الخديو كانت ضائعة ومسلوبة لقضاء الإنجليز عليها والحكومة الموجودة على رأسها صديق الاحتلال مصطفى فهمي الذي كان مكروها من الشعب وكان الإنجليز يتصرفون في شئون البلاد كما يشاءون ولخشية تدخل السلطان العثماني في أمر مصر. بعد وفاة الخديو توفيق اجتمع كرومر مع مصطفى فهمي رئيس النظار وغيره من المسئولين وتباحثوا في الأمر واتفقوا على استدعاء نجله عباس من فينا وتوليته العرش حيث أنه أكبر أنجال الخديو توفيق، ولكن اتضح أن هناك مشكلة شائكة حين توفى توفيق وهي أن عباس لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد فالأمر يقتضي أن لا يكون سن الأمير أقل من ثمانية عشر عاما وبما أن عباس ولد في ١٤ يوليو ١٨٧٤ فإنه لم يبلغ سن الرشد إلا في ١٤ يوليو ١٨٩٢ بينما كانت وفاة والده المفاجئة في السابع من يناير ١٨٩٢ مما أظهر شبح تكوين مجلس وصاية ما دام الأمير لم يبلغ سن الرشد ، ويذكر كرومر أنه سمع أحد العلماء يقول أن سن الأمير المسلم ينبغي أن يحسب بالسنين الهجرية التي تبلغ أيامها ٣٥٤ يوما فتمسك بذلك وبحساب سن عباس بالتاريخ الهجري اتضح أنه بلغ سن الرشد في ٢٤ ديسمبر ١٨٩١ أي قبل وفاة أبيه بأربعة عشر يوما.

وصل عباس إلى مصر وأخذ يضطلع بمهام الخديوية ، وقد تملكه في الفترة الأولى من حكمه شعور حماسي فاستبدل رجال الحاشية الموالين للاحتلال بغيرهم كما أصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشتركوا في أحداث الثورة العرابية وأخذ يوطد علاقته بالشعب.

وجد الخديو عباس الثاني في رئيس النظار مصطفى فهمي خضوعا كاملا للإنجليز فكان ينفذ أوامرهم ولا يتصرف في أي شأن من شئون الحكومة إلا بعد أخذ رأيهم مما ضايق عباس فانتهز فرصة مرضه وأرسل إليه خطابا بإقالته وكلف حسين فخري بتأليف النظارة الجديدة.

ثار اللورد كرومر على ذلك التغيير وذهب لمقابلة الخديو فأجابه الخديو أن من حقه اختيار الوزراء بنفسه دون الرجوع إلى أحد ، فهدده كرومر بأنه إذا قاوم إنجلترا فمعنى ذلك الإطاحة بعرشه ، وتعكر الجو وحدثت أزمة أرسلت الحكومة البريطانية فى أثرها برقية مضمونها أن الخديو لا بد أن يأخذ رأيها في المسائل الخطيرة مثل مسألة تغيير النظار ، وأنها لا ترى هناك ضرورة لتغيير رئيس النظار وانها لا توافق على تعيين فخري باشا.

قابل كرومر الخديو وأبلغه بالبرقية وطلب منه إرجاع مصطفى فهمي فرفض الخديو وقال أن من حقه تعيين الوزراء فهدده كرومر فرد الخديو بأن تنازله عن العرش أهون عليه من إرجاع مصطفى فهمي ، وتدخل بطرس غالي وآخرون لحل الأزمة ، وأخيرا سويت الأزمة على أساس ألا يتمسك كرومر بإعادة مصطفى فهمي لأنه ليس من الصواب إذلال الخديو الشاب كثيرا على أن يعزل فخري باشا ويتم تعيين رياض باشا مكانه ، وبذلك انتهت الأزمة الوزارية دون أن ينال أحد من الفريقين فوزا فاصلا ، ومع ذلك التفت الأمة المصرية حول الخديو وشجعته على موقفه وأقبلت عليه الوفود للتهنئة.

وزارة رياض وأزمة الحدود :

شكلت وزارة رياض في ١٩ من يناير ١٨٩٣ ، وقد شجع رياض الخديو على معاكسة إنجلترا وحاول الحد من تغلغل النفوذ الإنجليزي في البلاد ، والجدير بالذكر أن الخديو عباس الثاني اهتم منذ اعتلائه عرش الخديوية بأمر الجيش وفي ٨ يناير ١٨٩٤ استعرض الخديو بعض وحدات الجيش المصري في القاهرة وفي اليوم التالي سافر إلى الصعيد لتفقد أحوال الجيش هناك ، وبينما كان الخديو يستعرض الجيش في وادي حلفا

أبدى بعض الملاحظات والانتقادات التي تمس كفاءة الضباط الانجليز مما ضايق الإنجليز فأرسل كتشنر إلى كرومر بذلك وقدم استقالته احتجاجا على ان الخديو أهان الكرامة العسكرية للإنجليز ، وانتهز كرومر الفرصة حتى يوجه إلى الخديو ضربة قاصمة فأرسل إلى الحكومة البريطانية التي اعتبرت الأمر خطيرا وطلبت أن يقدم الخديو اعتذارا يثني فيه على الضباط الإنجليز وفي حالة رفضه تستعمل الشدة معه وهددت بخلع الخديو إذا لم يسحب انتقاداته ، فهرع رياض باشا إلى الصعيد وقابل الخديو وأخبره بالأمر ونصحه بالاستسلام فأصدر الخديو منشورا يعلن فيه رضاءه عن حالة الجيش بالحدود وعلى الضباط الإنجليز ، وبذلك تم إذعان الخديو لمطالب الإنجليز وأصيب نفوذه من جراء هذه الأزمة بضربة شديدة وفقد هيبته في نفوس أفراد الجيش، كما يتضح أن حادث الحدود كان نصرا كبيرا لكرومر وسياسته في مصر.

إطلاق يد الإنجليز في شئون الإدارة المصرية :

تميزت الفترة التي تلت حادث الحدود بأن الخديو عباس الثاني وإن كان لم يكف عن مقاومة الاحتلال إلا أنه سلك طريق المقاومة السرية بتشجيع العناصر المناوئة لتواجد الاحتلال ، وكان شديد الحذر في ذلك يظهر الوفاق ويبطن المقاومة ، وإن كانت الظروف قد اضطرته إلى المقاومة الصريحة للاحتلال بعد ذلك.

والجدير بالذكر أن تقرب الخديو إلى الأمة قد ازداد بعد حادث الحدود وفشله في السيطرة على الجيش فأخذ يدعو إليه المثقفين من أبناء البلاد والعلماء أمثال الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وغيرهم ، وكان يسمح لهم بأن يعقدوا الجلسات في قصره.

نشاط الخديو السري ضد الاحتلال :

تألفت جمعية سرية بعد حادث الحدود من بعض ضباط الجيش عرفت باسم جمعية المودة السرية ، كما شهدت مصر مولد جمعية سرية قدر لها أن تكون نواة للحزب الوطني فيما بعد ، وقد تمكن لطيف سليم المؤسس الفعلي لها من أن يحتفظ بأفكاره الثورية محبذا أسلوب العمل السري لتحرير الشعب بعيدا عن وصاية أي سلطة وقد انضم مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم إلى هذه الجمعية في عام ١٨٩٣ وقد

تعاون الخديو عباس الثاني مع هذه الجمعية ورحب أعضاء الجمعية بذلك حيث كان تواجده ضرورة ملحة اقتضتها الظروف الصعبة التي كانت تلك الحركة تشق طريقها وسطها لمقاومة الاحتلال الجاثم على صدر الوطن ، كما أدار الخديو من قصره اللجنة الفرنسية المصرية ، وقد قامت هذه اللجنة بالدعاية لقضية استقلال مصر في أوربا وبالذات في فرنسا.

والجدير بالذكر أنه تأسست جمعية سرية في بني سويف في عام ١٨٩٦ أطلق عليها جمعية تحرير مصر ، كما أرسل الخديو مصطفى كامل إلى بعض دول أوربا ليكسب العون الدولي لقضية استقلال مصر ، فركز نشاطه بصفة خاصة على فرنسا وتركيا وألمانيا والنمسا ، وقد خرج مصطفى بعد عام واحد من نشاطه في أوربا بحقيقة واضحة وهي أن النشاط في الخارج وحده لا يكفي لحدوث استقلال مصر بل أن العبء الأكبر يجب أن يكون على عاتق المصريين بالدرجة الأولى.

حادث دنشواي :

خلاصته أن خمسة من الضباط الإنجليز من كتيبة كانت في طريقها من الإسكندرية إلى القاهرة عسكرت في قرية كمشوش التابعة لمديرية المنوفية أرادوا الترويح عن أنفسهم بصيد الحمام فذهبوا إلى بلدة دنشواي التابعة لمركز شبين الكوم ودخلوا ضيعة أحد الملاك لصيد الحمام وجدوه واقفا على جرن مؤذن القرية محمد عبد النبي فانحرفت رصاصة أحدهم عن هدفها مما ادى إلى اشتعال النار في جرن محمد عبد النبي وجعل الأهالي – خصوصا أصحاب أبراج الحمام الذين كانوا في ضيق واستياء من صيد الإنجليز لحمامهم – يحاولون انتزاع أسلحة هؤلاء الضباط وضربهم وفي تلك الأثناء وصل الخفراء لفض النزاع وإخماد النيران ولكنهم فشلوا في ذلك مما دفع بعض الضباط الإنجليز إلى إطلاق الأعيرة النارية وفي تلك الأثناء انطلقت الرصاصات التي أصابت سيدة تدعى أم محمد وشيخ الخفراء وأحد الخفراء مما زاد من ثورة الأهالي فاشتدوا في هجومهم على الضباط وضربوهم فقر منهم اثنين جريا في اتجاه معسكرهم أصيب أحدهم بضربة شمس أودت بحياته ، وفر الآخر حيث أبلغ

بالحادث رسلانه فأسرعت دورية انجليزية لإنقاذ الضابط فصادفت الضابط المغشي عليه وقد أحاط به أحد الأهالي عند سوق سرسنا يقدم له الماء فانهالوا عليه ضربا بكعوب البنادق والسونكي حيث هشموا رأسه، ولما علمت سلطات الاحتلال بالحادث طلبت تقديم المتهمين للمحاكمة ، وعلى الرغم من ثبوت أن المشاجرة لم تكن بسبق إصرار وأن وفاة الضابط الإنجليزي كان بسبب ضربة الشمس التي لم يتحملها فقد درست المحكمة القضية ولم تعط المتهمين (عددهم) ٥٢ فرصا للدفاع عن أنفسهم إلا ثلاثين دقيقة فقط وحكمت المحكمة بإعدام أربعة شنقا وصدرت أحكام أخرى بين الأشغال الشاقة المؤبدة والأشغال الشاقة على الاخرين كما عزل عمدة دنشواي.

وقد نفذت الأحكام علنا في قرية دنشواي بين عويل النساء وصراخ الأطفال ووجوم الرجال الذين شاهدوا التعذيب.

وإذا تفحصنا أسباب هذه الحادثة والأحكام التي صدرت نخرج بالنتائج التالية :

١ – أن المعتدى في هذه الحادثة إنما هم الإنجليز ، فقد فاجئوا قرية آهلة بالسكان ليصطادوا الحمام كما لو كانت قرية مهجورة لا سكان فيها

٢ – أنه لا يمكن للأهالي وقد رأوا إحدى نسائهم تسقط جريحة والنار تشتعل في جرن القمح وشيخ الخفراء وآخرين مصابين برصاص الإنجليز أن يقفوا مكتوفي الأيدي دون أن يدافعوا عن اهلهم وبلدتهم وانفسهم.

٣ – أن أحكام المحكمة المخصوصة تجافي العدالة لأن أغلب أعضائها من الإنجليز ومعنى ذلك أن الإنجليز جعلوا من أنفسهم حكاما وخصوما.

٤ – أثبت تقرير الطب الشرعي أن الضابط المتوفي إنما مات لإصابته بضربة شمس وذلك لأن الوقت كان صيفا ودرجة الحرارة ٤٢ درجة.

٥ – أن المحاكمة كانت شبه صورية لأن النية كانت مبيتة على الانتقام فلم تستغرق المحاكمة سوى ثلاث أيام ، وقبل أن تنهي المحكمة إجراءاتها صدر الأمر إلى المخازن بإعداد المشانق والآلات الخاصة بالجلد وإرسالها إلى دنشواي.

لقد استنكرت الأمم المتمدينة هذه المأساة الوحشية ، وكادت الأمة المصرية تستسلم لليأس لولا صوت مصطفى كامل الذي بدد سحب اليأس فقد كان في باريس للاستشفاء وقت الحادث ورغم نصيحة الأطباء له بالراحة فإنه ما أن وصله خبر الحادث حتى كتب مقالته المشهورة إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين "في جريدة " الفيجارو " تناول فيه ملابسات الحادث وطريقة الحكم وتنفيذه فكان لهذه المقالة وقع شديد زعزع مركز اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر.

نتائج الحادث :

١- كان لهذا الحادث أكبر الأثر في إيقاظ الأمة المصرية حيث جمع قلوب الشعب المصري وأحى شعور التضامن القومي بين أبنائه.

٢- اطلاع الرأي العام الأوربي والإنجليزي على ما يرتكبه الاحتلال في مصر من فظائع.

٣- زيادة قوة الحركة الوطنية التي يتزعمها مصطفى كامل وانضمام كثير من المترددين إلى صفوف الحركة الوطنية ثم تعديل سياسة الاحتلال.

٤- استغلال مصطفى كامل للحادث في التشهير بالسياسة الإنجليزية وإثارة الرأي العام في أوربا على قسوة ما اتخذ من إجراءات.

٥- أظهرت حادثة دنشواي للعالم أن المصريين يكرهون الاحتلال خلافا للشائعات المخالفة لذلك.

٦- ساعدت حادثة دنشواي على بلورة الوضع الداخلي في مصر فظهرت الأحزاب الرئيسية الثلاثة (حزب الأمة – الحزب الوطني – حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية).

٧- اشتراك الأدباء والشعراء في التعبير عما حدث في دنشواي وبروز الملاحم الشعبية والأدب الشعبي للتعبير عن المظالم التي وقعت على الأهالي وأحكام الشنق والجلد وشنق زهران بالذات وفيما يلي الزجل الذي يعبر عن ذلك.

يوم شنج زهران كانت صعب وجناته

أمه تبكي عليه فوج السمح واخواته

لو كان له أب ساعة الشنج ما فاته

لاجل نصر الديانة اتانامصطفى كامل.

٨- أضافت حادثة دنشواي المزيد من أحقاد القرية المصرية على الاحتلال حتى أن الظلم القبيح لأحكام دنشواي أقتم السنة الأخيرة من حكم اللورد كرومر لدرجة أن تحركاته في مصر كانت تحت الحراسة المسلحة.

٩- ازدياد الشائعات عن أن أيام كرومر في مصر أصبحت معدودة ، وقد تحقق ذلك فعلا في أبريل ١٩٠٧ وعينت الحكومة الإنجليزية السير " الدون جورست ".

الدون جورست والحركة الوطنية المصرية :

تمكن جورست من اجتذاب الخديو إليه تماما حتى تطورت العلاقات بينهما إلى صداقة متينة وذلك بهدف الوقيعة بين الخديو والحركة الوطنية (سياسة فرق تسد) والواقع أن جورست قد نجح في الوقيعة بين الخديو والحزب الوطني وخصوصا مصطفى كامل مع ذلك فإنه لم ينجح في القضاء على الحركة الوطنية وإن ساعد بسياسته على تجزئتها فظهرت الأحزاب في مصر لأول مرة في تاريخها.

٢-مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطني

هناك أناس خلقوا للكفاح يستعذبونه ويستطيبون كل شيء في سبيله يرون فيه أداء للواجب وإرضاء للضمير وسبيلا ناجحا لإعلاء كلمة الحق وإصلاح أمور بلادهم ومن هؤلاء الزعيم الوطني الشاب مصطفى كامل.

ولعل أهم عمل قام به مصطفى كامل من أجل مصر هو أنه أعاد للمصريين الثقة في أنفسهم بعد هزيمة العرابيين في التل الكبير وبعد نجاح الاحتلال في إحداث البلبلة والاضطراب في تفكير المصريين تسبب عنها نوع من القنوط واليأس والحيرة استولت على قلوبهم والأمثلة على ذلك كثيرة منها المثل القائل " إتفق المصريون على ألا يتفقوا "

ومنها قول شاعر النيل حافظ إبراهيم :

إن عشرين حجة بعد خمس — علمتنا السكون مهما تمادى

أمة النيل أكبرت أن تعـاد — من رماها وأشفقت أن تعادى

ليس فيها إلا كلام وإلا حسرة — بعـد حسرة تتهـادى

لاجرى النيل في نواحيك يامصر — ولا جـادك الحيا حيث جادا

أأنت أنبت ذلك النبت يا مصـر — فأضحى عليك شوكا قتادا

وكان ما فعله مصطفى كامل هو انه ذكر المصريين بماضيهم وجلال تاريخهم وسما بالوطنية المصرية إلى مرتبة العقيدة حتى أصبحت أسلوبا في الكفاح وكان طريقه إلى ذلك الأسلوب السهل المؤثر على سامعيه لدرجة أن خطبه جرت على ألسنة الناس وكأنها أناشيد وأغان ، وساعده على ذلك أسلوبه الوجداني الذي اعتمد على الجمل الضخمة التي رددتها الجماهير " لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة "

" بلادي بلادي ، لك حبي وفؤادي لك حياتي ووجودي ، لك دمي ونفسي لك عقلي ولساني لك لبي وجناني فأنت انت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر "

بهذا الأسلوب الوجداني ، وبهذه القوة الخطابية خاطب مصطفى كامل شعور الشبيبة واستنهض همتهم يضاف إلى ذلك ما كان يكتبه من مقالات تتقد بالوطنية بالجرائد خاصة في جريدة اللواء.

بكل ذلك استطاع مصطفى كامل أن ينهض بأعباء دعوته متقدما إلى الأمام رافعا علم النهضة ومرددا نشيد الأمل بصوت تهتز له الأفئدة حتى لقد وصفه لطفي السيد بأن شعاره الوطنية وغرضه الوطنية وكلماته الوطنية وكتابته الوطنية وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار بينهما تلازم مستمر في كافة المواقف.

ولعل أدق تحليل لدور مصطفى كامل في قيادة الحركة الوطنية هو ما ذكره الأستاذ محمد شفيق غربال إذ يقول " أبسط استجابة كانت استجابة مصطفى كامل تقوم على قاعدة خالية من كل تعقيد ومن كل شطارة لمصر عدو واحد هو الاحتلال ،

ولمصر مقصد واحد وهو الجلاء وما عدا ذلك فتفصيل له وقته .. ومصدر العقيدة أيضا بسيط كل البساطة فكانت حملة مصطفى كامل تستخدم ثلاث وسائل هي :

١- ألا يأس مطلقا ولا تصدقوا أيها المصريون كلام الإنجليز أو كلام ماجوريهم بأن مركزهم في مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع.

٢- لا تثقوا مطلقا بوعودهم ولا تركنوا إلى محاولاتهم تبسيط مركز البلاد الدولي بل تذرعوا بتلك العناصر الدولية والعثمانية التي يكرهها الإنجليز ويكفي كرههم لها لتمسككم بها.

٣- لا تصدقوا أن الاحتلال يمكن أن يبطن خيرا لكم أو لبعضكم فهو يفعل لك ليفرق كلمتكم ويجعل من بعضكم أعداء البعض الآخر(١).

ولقد اتبع مصطفى كامل سياسة مترامية الطراف تعتمد على أساليب متعددة من اجل إجلاء الإنجليز عن مصر فلم يترك وسيلة لخدمة القضية المصرية إلا ولجأ إليها فاعتمد على فرنسا والدولة العثمانية كما وطد علاقته بالخديو في أول الأمر خصوصا وأن الحركة الوطنية لم تكن قادرة وحدها على الصمود في وجه الاحتلال ولما ينس من هؤلاء جميعا لم يجد خير وسيلة أمامه سوى الاعتماد على الرأي العام وتربيته.

وعلى الرغم من أن فكرة تأسيس حزب لم تكن بعيدة عن ذهن مصطفى كامل ، وبالرغم من انه كان يلم بطبيعة العمل الحزبي التي كان قد عرفها جيدا أثناء وجوده بفرنسا وتجواله في أوربا فقد آثر ألا يكون البادئ بتكوين الأحزاب لقناعته بضرورة توحيد كافة القوى في مصر لإجلاء المحتل الغاصب أولا ولأن إنشاء أحزاب في تلك الفترة ربما يؤدي إلى تفتيت الجهود الوطنية وتصارعها ، واستمر مصطفى كامل متمسكا بهذا الموقف كما تمسكت به القوى الوطنية الأخرى لفترة من الوقت ، ولكن تطور الأحداث في مصر ويأس الوطنيين من الحصول على مساعدات فعالة ضد الاحتلال من أوربا أو الدولة العثمانية أو من الخديو خصوصا بعد عقد الاتفاق الودي

---

(١) شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ٣٧.

عام ١٩٠٤ وأزمة طابة ١٩٠٦ وأحداث دنشواي عام ١٩٠٦ أيضا كل هذا أدى إلى ضعف الحركة الوطنية وانقسامها إلى ثلاث اقسام :

القسم الأول : ويشمل بعض كبار الملاك والمثقفين من اتباع الشيخ محمد عبده وكان هدفهم حماية مصالحهم بالتعاون مع الاحتلال بعد أن رأوا ثمار إصلاحاتهم في الزراعة والري.

والقسم الثاني : ويشمل أنصار الخديو وعلى رأسهم الشيخ علي يوسف وكان هدفهم تحقيق الاستقلال الإداري ثم إقامة حكم نيابي مقيد بسلطة الخديو ، وكان هؤلاء ينتقدون سلطات الاحتلال نقدا معتدلا.

أما القسم الثالث : فكان فريق مصطفى كامل ، وكان يعتمد على المثقفين بوجه خاص وهو الذي حمل لواء المعارضة ضد الاحتلال

ومن هذه الأقسام الثلاثة تكونت الأحزاب المصرية الثلاثة الكبرى وهي حزب الأمة وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية والحزب الوطني.

وقد يجرنا الحديث عن الحزب الوطني إلى أن نتساءل هل عبارة الحزب الوطني جديدة أم كانت معروفة قبل مصطفى كامل.

الواقع أن تعبير الحزب الوطني كان معروفا في مصر قبل ظهور مصطفى كامل بعشرات السنين فقد تردد هذا الاسم أكثر من مرة في كتابات وخطب الوطنيين المصريين وغيرهم كما أطلق على بعض الهيئات الوطنية سواء السرية منها أو العلنية فعندما أحس المصريون بالخطر على مصير بلادهم ، وفكروا في التخلص من الخديو إسماعيل الذي لا يحسن تصريف شئون البلاد تم الاتفاق بين الجمعية السرية التي تكونت في أبريل ١٨٧٩ على تأليف " حزب خفي من العظماء والكبراء والعلماء سموا أنفسهم بالحزب الوطني ، وقد أتيح لعرابي تزعم هذا الحزب بجناحيه المدني والعسكري(١).

---

(1) Ninet : Arabi pacha

وعندما ناشد الأفغاني أبناء مصر بالإقبال على العلوم والمعارف أوضح لهم أن حزبهم الوطني لا تحصل له القوة ولا يكون له البقاء إلا إذا استقرت فيهم المعارف.

وعندما اشتد التآمر على الثورة العرابية وأقال الخديو وزارة البارودي التي كان عرابي وزيرا للحربية فيها ، تمسك عرابي بمركزه كرئيس للحركة الوطنية وأعلن أنه لم يستعف من رئاسة الحزب الوطني رغم استعفائه من نظارة الجهادية .

وعندما سافر مصطفى كامل إلى باريس عام ١٨٩٥ للدعاية للقضية المصرية صرح بأنه موفد من قبل الحزب الوطني علما بان هذا الحزب لم يكن له وجود في تلك الفترة .

وعندما تأسست جمعية سرية لمناهضة الاحتلال تحت رئاسة الخديو في عام ١٨٩٦ عبر عنها مصطفى كامل بأنها حزب سري مخلص للغاية وعلى استعداد للتضحية بذاته في سبيل الوطن المقدس .

وهذا الحزب أطلق عليه اسم الحزب الوطني ، وقد أكد لطفي السيد ذلك بقوله " كونا تحت رعاية الخديو عباس جمعية سرية في بادئ الأمر ، وكانت هذه الجمعية هي الحزب الوطني .

لماذا أطلق تعبير الحزب الوطني على هذه الهيئات السياسية رغم أنها لم تكن حزبا سياسيا بالمعنى المفهوم فالحزب لابد أن يقابله أحزاب أخرى تتعارض في المبادئ والبرامج على النحو الذي نعهده في الأحزاب السياسية .

يذكر عرابي أن مصر مسكونة بأجناس مختلفة وكل جنس منها يعتبر حزبا كما أن لأهل البلاد حزب قائم بذاته هو الحزب الوطني .[1]

ويذكر مصطفى كامل أن الحزب الوطني موجود فعلا قبل إعلانه بثلاثة عشر عاما فهو وان لم يظهر بشكل نظامي وبلائحة ولجنة إدارة فقد ظهر بأعماله واتفاق أعضائه على خدمة البلاد بكل قوة وأن هذا الحزب هو حزب الأمة كلها الذي أيقظ العواطف الوطنية في البلاد .

---

(١) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٨ ملف ٢١٢

ويذكر الأستاذ عباس محمود العقاد أن تسمية تلك الهيئة السياسية بالحزب ترجع إلى أن أفرادها يواجهون جماعة الأتراك والشراكسة والألبانيين والأرمن الذين كانوا يتبعون الدولة العثمانية وينفردون بولاية الحكم فى الوظائف الكبيرة وأكثر الوظائف الصغيرة ، لذلك فتعبير الحزب الوطني على هذا الأساس كان هو حزب الفلاحين أو حزب الأمة المصرية .

والواقع أن إطلاق تعبير حزب على تلك الهيئات الوطنية من الممكن الاستعاضة عنه بتعبير جبهة وطنية أو اتجاه وطني بدلا من حزب لأنه لم يحمل مضمون الحزب أو أبعاده فقد كانت له أهداف عامة تعكس الآمال الشعبية ، ومع ذلك فقد كان يفتقد إلى التنظيم اللازم للعمل الحزبي ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد ظهرت أحزاب في ظل الاحتلال كان لها برامج وأطلق عليها اسم الحزب الوطني قبل أن يؤسس مصطفى كامل حزبه مثل الحزب الوطني الحر. الذي تأسس في ٢٦ يوليو ١٩٠٧ برئاسة محمد وحيد الأيوبي ، وكان مناصرا للاحتلال ، ويرى أن رقى البلاد لم يتم إلا على يديه كما كان معاديا لمصطفى كامل وحركته.

وحزب آخر سمي الحزب الوطني أسسه حافظ عوض صاحب جريدة المنبر في أغسطس ١٩٠٧ وكان شديد الولاء للاحتلال البريطاني أيضا ولكنه لم يستمّر طويلا بل انضم إلى حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية بعد ذلك .

وعلى كل حال فان فكرة تأسيس حزب بمفهوم حقيقي قد راودت مصطفى كامل قبل الإعلان عنه بمدة ، ففي عام ١٩٠٠ فكر في إقامة حزب على غرار الأحزاب الأوربية وأوضح عن ذلك في اللواء معربا عن أمنيته في تأسيس هذا الحزب . ولكن خسيته من تفتيت الجبهة الداخلية جعله يحجم عن تنفيذ فكرته ، ولعله تعلم هذا الدرس من عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ، ومع ذلك فقد ظلت فكرة تأسيس حزب تراود خياله فعندما اجتمع بالخديو في خريف ١٩٠٦ اتفق معه على تأسيس الحزب الوطني ،

وكانت نقطة الخلاف حوله هل سيكون الحزب سريا أم علنيا ، وكان رأي الخديو أن يكون سريا ثم انتهى الأمر بأن كان علنيا .[1]

ومع ذلك لم يسرع مصطفى كامل في تكوين حزبه ، بل تريث في الأمر حتى أواخر ١٩٠٧ خشية تفتيت الجبهة الداخلية ، ولكن ظهور حزبي الأمة والإصلاح على المبادئ الدستورية قد دفعاه إلى الإسراع في تأسيس حزبه وقد أوضح مصطفى كامل ذلك في خطاب أرسله إلي محمد فريد قال فيه " أن ظهور حزب الأمة المؤلف من أولئك الذين خبرنا نفسيتهم وميلهم إلى مسايرة المحتلين وفقا لما يسمونه سياسة اللين والتدرج وان ما علمته كذلك من صاحب المؤيد عن تأليف حزب باسم " حزب الإصلاح " لخدمة السراي ، هذان الأمران يحتمان علينا كل التحتيم أن نظهر حزبنا الوطني بالرغم منا بمظهره الحقيقي حتى يعلم العالم كافة أن للوطن المصري حزبا يطلب بعزيمة صادقة الجلاء والدستور أي أنه لا يقبل حكم الأجنبي ولا حكم الفرد " ثم أوضح مصطفى كامل الأسباب التي تجعله لا يرغب في تعدد الأحزاب فقال " نعم إني أرغب الآن كل الرغبة في ظهور هذا الحزب بحال منتظمة بالرغم من وطنيتي التي ترى في تعدد الأحزاب حربا أهلية لا مندوحة منها ، حربا تعوق ولو إلي حين ما نرمي إليه من حرية واستقلال بتقوية مركز المحتل لبلادنا ولكن ما العمل ونحن لو سكتنا أمام هذه الحال التي ما أوجدها إلا دهاء جورست وقصر نظر المؤلفين لهذين الحزبين لفقدنا كل شيء ولأصبحت الوطنية المصرية عدما في عدم بتغليب المبادئ السقيمة عليها وتقاعس المخلصين لنصرتها وإنمائها .

وهكذا يتضح أن مصطفى كامل رغم أمنيته في أن يرى في مصر حزبا وطنيا منظما إلا انه خشي أن يبدأ بهذه الخطوة حتى لا تنقسم الجبهة الداخلية ، واستمر على هذه السياسة حتى ظهر حزبا الأمة والإصلاح على المبادئ الدستورية ، فاضطر إلى أن يعلن عن حزبه حتى لا تضيع الأهداف الوطنية وسط المتاهات الحزبية ففي الثاني والعشرين من أكتوبر ١٩٠٧ دعا مصطفى كامل الوطنيين لمؤتمر عام بمسرح

---

(١) مذكرات محمد فريد ملف رقم (١) جـ١ القسم الاول ص ١ .

زيزينيا بالإسكندرية فلبى الدعوة عدد قدرته الصحف بين خمسة وسبعة آلاف ألقى فيهم مصطفى كامل خطبة طويلة تحدث فيها عن الحياة الوطنية في مصر بعد الاتفاق الودي والتقدم الذي أحرزه العمل الوطني وثقته الكبيرة في أن المصريين قادرون على الوصول إلى الاستقلال ، كما أعلن عن قيام الحزب الوطني ودعا أفراد الأمة إلى الانضمام إليه .

وقد احدث ذلك الخطاب دويا كبيرا ، ونشرت الجرائد فقرات طويلة منه وانهالت للانضمام للحزب من كل جانب .

وفي ٢٧ ديسمبر عقدت أول جمعية عمومية للحزب بدار جريدة اللواء بالقاهرة أطلق عليها اسم المؤتمر الوطني وكان عدد الحاضرين ١٠١٩ مندوبا من كافة الطبقات يمثل كلا منهم مئتا عضو طبقا لقانون الحزب ، وافتتح مصطفى كامل هذه الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بأن الحزب الوطني موجود منذ وقت طويل ، وان ما يحدث هو إعادة تنظيمه ، كما أوضح أن الحزب الوطني لم يكن حزبا سياسيا فحسب بل هو قبل كل شيء حزب حياة الأمة وإنهاض لها، كما انه حزب يهتم بتعليم سائر طبقات الشعب ، ويرى ان استقلال البلاد هو أساس كل سعادة ويسعى للوفاق بين إفراد الأمة كما يقم بتحسين حال الفلاح .[1]

وبعد خطاب مصطفى كامل انتخبه الحاضرون بالإجماع رئيسا للحزب الوطني مدى الحياة ، وبعد التصديق على لائحة الحزب قام الحاضرون بانتخاب الأعضاء الثلاثين للجنة الإدارية الأولى للحزب .

والجدير بالذكر أن الحزب الوطني كان الحزب الوحيد –من الأحزاب الثلاثة الكبيرة – الذي التزم بمنهج ديمقراطي في تنظيمه فقد بدأ من القاعدة وتدرج إلى القمة كما هو متبعا في الأحزاب الديمقراطية فرفض أن يفرض على أعضائه لجنة إدارية معينة كما حدث في حزبي الأمة والإصلاح بل ترك الأمر للجمعية العمومية التي قمت بانتخاب أعضاء اللجنة الإدارية المكونة من ثلاثين عضوا والتي قامت بدورها في

---

[1] الجورنال دي كير في مصر ص ٢٧٣

انتخاب اللجنة التنفيذية للحزب المكونة من تسعة أعضاء . إلا أن ما يؤخذ على الحزب أن انتخاب رئيسه مدى الحياة أمر غير مفهوم في الأحزاب الديمقراطية وهذا هو ما أخذه سعد زغلول على الحزب الوطني[1]. وما دفع محمد فريد بعد ذلك بتعديل هذه المادة وتجديد المدة التي ينتخب لها الرئيس بثلاث سنوات .

أما عن برنامج الحزب فقد تضمن مبادئ عشرة هي :

١- استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ وضمنته الفرمانات السلطانية ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد علي والضامن للاستقلال الداخلي للبلاد وهو الاستقلال الذي تعهدت إنجلترا رسميا باحترامه .

٢- إيجاد حكومة دستورية في البلاد بحيث تكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابي تام السلطة كمجالس النواب في أوربا.

٣- احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديون ، وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية مادامت مصر مدينة لأوروبا وما دامت أوروبا تطلب هذه المراقبة .

٤- انتقاد الأعمال الضارة بكل صراحة والاعتراف بالأعمال النافعة والتشجيع عليها وإرشاد الحكومة إلى خير الأمة ورغائبها والإصلاحات اللازمة لها .

٥- العمل على نشر التعليم في أنحاء الديار على أساس وطني صحيح بحيث ينال الفقراء النصيب الأوفر منه ، ومحاربة الخزعبلات والترهات ونشر المبادئ الدينية السليمة الداعية للرقي وحث الأغنياء والقادرين على بذل كل المساعدات لنشر التعليم بتأسيس الكليات في البلاد ، وإرسال الإرساليات لأوروبا وفتح المدارس الليلية للعمال والصناع.

٦- ترقية الزراعة والصناعة والتجارة ، وكل فروع الحياة ، والعمل والجد حتى تنال الأمة استقلالها العلمي والاقتصادي .

([1]) مذكرات سعد زغلول ، كراس رقم ٦ ص ٢٩١-٣٠٠ .

٧- إرشاد الأهالي بكافة الوسائل الممكنة إلى حقائق الأحوال وبث الشعور الوطني فيهم ، ودعوتهم إلى الاتحاد والائتلاف وتمكين المحبة بين عنصري الأمة المسلمين الأقباط وتنبيههم إلى واجباتهم نحو بلادهم .

٨- مساعدة كل مشروع يعود على القطر بالنجاح والاجتهاد في تحسين الأحوال الصحية حتى يزداد عدد السكان فتزداد الأمة قوة على قوتها .

٩- تقوية العلاقات الودية بين تركيا ومصر من جهة ، وبين مصر والدول الأوروبية من جهة أخري ونفي كل تهمة عن مصر ، والعمل لإيجاد أنصار لها في أنحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تساعدها على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية ، والتغلب على المساعي التي تعمل ضدها ويراد بها إخفاء الحقيقة.[1]

وعند تحليل المبادئ التي ارتكن عليها الحزب الوطني نجد أنها قريبة الشبه بالبرنامج الذي سار عليه الوطنيون في عام١٨٨١ وأطلق عليه برنامج الحزب الوطني المصري خصوصا في إعلان ولاء كل منهما للدولة العثمانية، وضرورة المحافظة على العلاقات القوية معها والارتكان في ذلك على مواجهة القوى الخارجية .

ففي البند الأول من برنامج الحزب الوطني المصري ما نص " يرى الحزب المحافظة على العلاقات الودية بين الحكومة المصرية والباب العالي ، واتخاذ ذلك الباب ركنا يستند عليه" ثم يعترف باستحقاق الباب العالي لما يأخذه من أموال من الخزانة المصرية وما يلزمه من المساعدة بشرط المحافظة على الحقوق الوطنية ومقاومة من يحاول إخضاع مصر أو يسلب امتيازاتها الإدارية التي منحتها الفرمانات ، وفي البند الأول من برنامج الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل نجد المطالبة بالاستقلال الذاتي لمصر في ظل السيادة العثمانية مما أثار البعض على مصطفى كامل خصوصا جريدة المقطم التي اتهمته وحزبه بأنهم يعملون على استبدال الإنجليز بالأتراك وبأنهم يفضلون الولاء للعثمانية على الولاء للمصرية ، وقامت بحملة شديدة

( ) تقرير الحزب الوطني عن سنة ١٩٠٧ ص ٢١٦ - ٢٢١

على الحزب الوطني ومؤسسه مما دفع مصطفى كامل إلى دحض هذه التهم ، مبينا أن الفرمانات السلطانية تثبت عدم شرعية الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وان الباب العالي يحترم دائما استقلال مصر كما انه ضد أي تغيير للمعاهدات الدولية التي نظمت علاقة مصر بالدولة العثمانية .[1]

ويرجع الدكتور هيكل أسباب تمسك الحزب الوطني بهذا البند في حياة مصطفى كامل إلى محاولته تفادي معارضة القانون أو أن ينسب إليه أحد تهمة التآمر على النظام القائم.

ومع وجاهة هذا الرأي فإننا إذا تفحصنا الخطبة التي ألقاها مصطفى كامل على مسرح زيزينيا بالإسكندرية وأعلن فيها قيام الحزب الوطني نجده يذكر ما نصه " أننا إذا خطبنا الود لامة أو لدولة فإننا نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضي بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون " ومعنى ذلك انه إذا كان مصطفى كامل قد نادى بضرورة التمسك بالرابطة العثمانية فيرجع ذلك إلى أنه رأي في التعاون مع الدولة العثمانية ورقة سياسية ذات فاعلية ضد محاولات إنجلترا إعلان الحماية على مصر .

وحتى يحول دون استمالة إنجلترا للسلطان العثماني وإيقاعها بينه وبين مصر فليس من الحكمة أن ينادي مصطفى كامل بجلاء الاحتلال البريطاني وبإلغاء السيادة العثمانية معا لأنه إذا فعل ذلك سيثير غضب تركيا ويجعلها تنضم إلي جانب إنجلترا ضد المصالح المصرية ، كما أنه رأى أن التخلص من السيادة العثمانية كان أمرا هينا بعد التخلص من الاحتلال يضاف إلى ذلك أن الرأي العام في مصر كان متمسكا بالخلافة ، وكان يعتبر السلطان العثماني خليفة المسلمين ، لذلك فان دعوة مصطفى كامل للتمسك بالخلافة كانت تساير روح العصر وتتفق مع رأى غالبية المصريين .[2]

وفي البند الثاني لكل من الحزبين نرى هناك تشابها أيضا فقد نص برنامج الحزب الوطني ايام عرابي على عدم عودة الاستبداد والأحكام الظالمة ، واتباع حكم

---

(1) اللواء في ٣١ اكتوبر ١٩٠٧ .
(2) محمد على علوبة : ذكريات سياسية واجتماعية ص ٨٨ .

الشورى بواسطة مجلس الشورى والنواب وإطلاق عنان الحرية للمصريين ، ودعا برنامج الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل إلى أن تكون الحكومة دستورية ومسئولة أمام مجلس النواب .

أما البند الثالث فنجد فيه تشابها أيضا من ناحية احترام الاتفاقات والمعاهدات التي عقدت مع الدول الأوربية حتى تهدأ خواطر أصحاب الديون فقد نص برنامج الحزب الأول على احترام الاتفاقات الدولية خصوصا الديون الأجنبية وقبول استمرار المراقبة الأوربية كما نص برنامج حزب مصطفى كامل على احترام ارتباطات الحكومة بسداد الديون وقبول مراقبة مادية كالمراقبة الثنائية ما دامت مصر مدينة لأوربا .

يضاف إلى ذلك أن كل من الحزبين نادى بتعميم التعليم والعمل على نشر المعارف وتقوية عنصر الوئام والمحبة بين كافة الأديان ونفي تهمة التعصب عن المصريين واشتراك رجال مختلفي العقيدة والمذهب في كل منهما .

وعلى كل حال فقد كان برنامج الحزب الوطني برنامجا علميا بشكل عام واقرب ما يكون الى نشاط مصطفى كامل قبل إعلان الحزب رسميا .

وقد كانت الجمعية العمومية للحزب الوطني تجتمع مرة في شهر ديسمبر من كل عام تحت اسم المؤتمر الوطني لمناقشة ميزانية الحزب وأعماله ومراجعة نشاطه ووضع القرارات.

وعن اللجنة الإدارية للحزب فكانت تنعقد مرة كل شهر للنظر في الأمور الخاصة بالحزب .

أما عن اللجنة التنفيذية فكانت تتكون من ثمانية أعضاء ينتخبون من أعضاء اللجنة الإدارية بخلاف الرئيس يكون منهم نائبان للرئيس وسكرتير وأمين صندوق وكانت هذه اللجنة تجتمع أسبوعيا لتسير أمور الحزب وما يطرأ عليه من تطورات .

وبالنسبة لاشتراكات الأعضاء فلم يتحدد اشتراك معين بل ترك كل عضو يدفع ما يريد حسب مقدرته . وقد نمت حركة الحزب الوطني واتسع نطاقها بازدياد عدد الذين انضموا إلى صفوفه.

وتختلف الآراء التي قيلت عن تأسيس الحزب الوطني بين مادح وقادح فهناك رأى يرى أنه كان من الواجب على مصطفى كامل وجماعته محاربة حركة تجزئة الأمة وتفتيت وحدتها بان تبادر بكشف أساليب الاستعمار وأعوانه بدلا من أن تسارع إلى تنظيم نفسها على شكل حزب بعد الإعلان عن حزبي الأمة والإصلاح على المبادئ الدستورية. [1] ولكن ردنا على ذلك هو انه بالرغم من اختمار فكرة تكوين الحزب الوطني في ذهن مصطفى كامل كما سبق أن أوضحنا إلا أنه لم يقدم على هذه الخطوة إلا بعد الإعلان عن حزبي الأمة والإصلاح وبعد أن كاد صوت الجلاء يضيع وسط المتاهات الحزبية ، فالواضح أن الحزب الوطني كان آخر الأحزاب الكبيرة التي أعلنت عن نفسها حيث أعلن عن قيام حزب الأمة في ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ وحزب الإصلاح في ٩ سبتمبر بينما الحزب الوطني لم يعلن قيامه إلا في ٢٧ ديسمبر من نفس العام يضاف إلى ذلك أن مصطفى كامل رغم انه اضطر إلى قبول مبدأ تكوين الحزب السياسي فانه ظل يدافع عن فكرة مبدأ الحزب الواحد ، وكان من رأيه أن تعدد الأحزاب ممكن طالما أن الوطن ليس معرضا للخطر أما وقد أصبحت مصر محتلة من الإنجليز، فإن مواجهة الخطر تقتضي الاكتفاء بحزب سياسي واحد هو الحزب الوطني حتى يتمكن من توحيد الأمة وتجنيد وحشد كافة طاقاتها لتحقيق الاستقلال .

أما الرأي الثاني فكان يرى في تعدد الأحزاب قوة للامة وتأكيدا لصلابتها وتقدمها إذ أنه لا توجد الأحزاب إلا في الأمم القوية التي بلغت اشدها ، وتكون الأحزاب كالشجرة التي تتفرع إلى أغصان كثيرة لكنها ترتبط بالجذع الراسخ بجذوره

---

(1) محمد عبد السلام الزيات : الاتجاهات المعاصرة في التنظيم السياسي ص ١٤٧ .

في أعماق الأرض ، فكذلك الأمة القوية هي الجذع الراسخ وفروعها بمثابة الأحزاب المختلفة الاتجاهات .[1]

ثم هناك رأى آخر يرى أن العمل الحزبي افضل من العمل الفردي الذي يمكن أن ينتهي بموت الفرد ، كما أن وجود أحزاب معتدلة بجانب متطرفة يعطي للإنجليز الفرصة في التفاهم معهم فيكون أحدهم حلقة اتصال بين الأمة والاحتلال .

ومع وجاهة الآراء السابقة فإننا نرى أن ظروف مصر في تلك الفترة وهي فترة الاحتلال كانت تتطلب وجود حزب واحد قوي يستطيع قيادة الأمة نحو الاستقلال بعيدا عن المهاترات الحزبية التي غالبا ما تنشأ نتيجة الصراع بين مختلف الاتجاهات والنزاعات الحزبية، أما بعد أن يتحقق الجلاء فتتعدد الأحزاب مطلوب لممارسة الحياة الديمقراطية .

وعلى كل حال فقد خاضت مصر غمار الحزبية ، واصبح لزاما على الحزب الوطني ان يحمل لواء الاستقلال وقيادة الحركة الوطنية المطالبة بالجلاء العاجل .

ولقد ارتبطت الطبقة المتوسطة وبوجه خاص الكامنة منها في المدن بشخصية مصطفى كامل الرومانسية اشد الارتباط كما ارتبط الشباب بصفة عامة والطلبة بصفة خاصة بمصطفى كامل لدرجة أن أصبحت بعض المدارس مكانا للمناقشات السياسية التي أثارها الحزب الوطني.(٢)

ومع ذلك فانه لا يمكن القول بان الحزب الوطني كان يمثل كافة المثقفين لان هؤلاء وزعوا بين كافة الأحزاب كما أن الحزب الوطني في بداية تكوينه لم يهتم بجذب الفلاحين إليه وذلك لأن دعوته بالتقارب من الدولة العثمانية جعلت الفلاحين يبتعدون عنه نظرا لما لاقوه من العسف أثناء الحكم العثماني واستمر الحال على هذا المنوال حتى حادثة دنشواي التي كانت فرصة لوصول صوت مصطفى كامل للفلاحين ، يضاف إلى ذلك أن نشاط الحزب الوطني تركز في المدن ، وبوجه خاص في

---

(1) محمد توحيد : كيف يبحث الوطني في مسألة الأحزاب السياسية في مصر ص ٩٠ .

(2) Alexander : The Truth about Egypt P.229 .

الإسكندرية والقاهرة والمدن الكبرى بالوجه البحري أما في الوجه القبلي فلم يكن للحزب الوطني نفوذ يذكر .

ولقد تميز برنامج الحزب الوطني بالوضوح ورتب مطالبه الوطنية حسب أهميتها فأعطى للجلاء الأولوية على الدستور ، وبذلك كان حزب التعبير عن الواقع مما كفل له تأييد أغلبية الجماهير فكان اعظم وزن في الحركة السياسية المصرية في تلك الفترة .

وقد أثمرت دعوة الحزب الوطني في جمع شمل المصريين حول مطلب الجلاء الذي اقترن بفكرة الحياة الدستورية ، ولما اتضح أن ذلك لا يتم إلا بالارتقاء بأفراد الأمة اهتم الحزب الوطني بنشر التعليم كما نادى برفع الغبن عن الطبقات الكادحة من أبناء الشعب .(١)

ومما يؤخذ على الحزب الوطني موقفه من القضايا الاجتماعية، فرغم أن مؤسسه تعلم في أوربا فقد ظل متمسكا بالقديم اشد استمساك فهاجم قاسم أمين عندما اصدر كتابه تحرير المرأة واتهمه بمخالفة الدين كما هاجم الشيخ على يوسف لموقفه من قضية الزوجية .

ويمكننا أن نرجع ذلك إلى أن مصطفى كامل حاول التقرب إلى الشعب فيما هو عزيز لديه من عادات وأوهام لاستغلاله في الغايات السياسية .

ويؤخذ على الحزب الوطني أيضا أنه لم يكن له دور بارز داخل القرية المصرية فاعتمد على الطبقة المثقفة مع أن الحركات الجماهيرية لا تتعمق جذورها إلا بالاعتماد على القوى الفلاحية التي تمثل غالبية أفراد المجتمع كما يؤخذ عليه انه لم يطرح على جماهير الشعب المصري تصورات لآفاق جديدة مثل التي طرحتها الأحزاب الأخرى.

---

(١) فتحي رضوان : كفاحنا الوطني في نصف قرن ص ٦١ .

ولعل الخديو عباس الثاني كان محقا فيما قاله عن مصطفى كامل بأنه لم يكن مفرطا في عصريته وان أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقي[1] يضاف إلى ذلك ما ذكرته جوليت آدم من أن مصطفى كامل كان يشفع أعماله بالتقاليد العربية الأصيلة حتى يرضى شمم عنصره الذي لا يقبل في ذلك الوقت إلا أن يسترد ما أعاره لأوربا.

وعلى كل حال فقد أسس مصطفى كامل حزبا ذو تنظيم اتسم بالقوة والثبات أمام الضربات التي وجهت إليه وصار يؤدي واجبه في حركة النضال الوطني حتى أنه يمكن القول أنه كان صاحب الفضل في تهيئة الطريق أمام ثورة ١٩١٩.

٣ – محمد فريد وزعامته للحزب الوطني

حياة محمد فريد الزعيم الثاني للحزب الوطني مليئة بالتضحيات في سبيل المبادئ من اجل الدفاع عن حرية مصر وحقوقها المسلوبة فقد انضم فريد إلى قافلة المجاهدين بعد أن أتم تعليمه، وبدأ حياته السياسية بالاستقالة من وظيفته كوكيل للنائب العام بعد موقفه الوطني في قضية التلغراف، ثم ضحى بعمله في المحاماة لكي يتفرغ للجهاد ، كما ضحى بأمواله لمساندة الحركة الوطنية فباع كل ما تركه والده من أرض زراعية من أجل تمويل الحزب الوطني حتى يقف على قدميه ثابت الأركان ، ورفض الاشتراك في أي وزارة. أو تولي أي منصب طالما الاحتلال جاثما على صدر الوطن يضاف إلى ذلك أنه ضحى براحته وحريته فتعرض للسجن والنفي ومات بعيدا عن الوطن الذي أحبه وعمل من أجله.

ورغم الظروف السياسية التي أحاطت بفريد عقب توليه رئاسة الحزب الوطني ورغم ما تعرضت له الحركة الوطنية من ضربات متلاحقة سواء من الخديو أو من الاحتلال نتيجة سياسة الوفاق التي اتبعها الإنجليز لاجتذاب الخديو إلى صفهم واحتواء الحركة الوطنية فقد ظل فريد متمسكا بمبادئه متحملا للمصاعب والعقبات التي واجهته بكل عزيمة وجلد ليس فقط من جانب الإنجليز والخديو ، ولكن أيضا من جانب بعض أعضاء الحزب الوطني وبوجه خاص من علي فهمي كامل شقيق مصطفى كامل.

([1]) المصرى: فى ١٤ مايو ١٩٥١.

فبعد وفاة مصطفى كامل اتجهت أنظار الوطنيين إلى محمد فريد ليخلفه في تحمل أعباء زعامة الحزب إلا أن الخديو كان له موقف آخر وهو رغبته في احتواء الحزب الوطني عن طريق ترشيح من يتوسم فيه السير في ركابه خلفا لمصطفى كامل في زعامة الحزب ، ولما كان الخديو يدرك أن فريدا ليس بالرجل الذي يسير طوع إرادته ، أو ممن يدينون بالولاء أو الطاعة له فقد حاول منع انتخابه رئيسا للحزب الوطني وذلك عن طريق تقريب أعضاء الحزب منه وإملاء إرشاداته وتوجيهاته عليهم ، ودس دسائسه لانتخاب من يكون طوع إرادته فأوعز إلى علي فهمي كامل أن يرشح نفسه لرئاسة الحزب الوطني ووعده بالمساعدة المادية والأدبية على أساس انه أحق الناس بوراثة أخيه في زعامة الحركة الوطنية ، ورغم أن مصطفى كامل كان قد رشح فريدا بأن يكون رئيسا للحزب من بعده فإن علي فهمي كامل حبذ فكرة الخديو ، وعمل من اجل تحقيقها ، ولكنه رأي التيار داخل الحزب في صالح فريد فتراجع عن موقفه ، ويتضح ذلك مما كتبه فريد في مذكراته فقال " كان يريد أن ينتخب بصفته أخ الفقيد وجهز أوراقا مكتوبا عليها اسمه ووزعها على بعض الحاضرين ، وأدخل في محضر الاجتماع الكثيرين من غير الأعضاء بواسطة من وضعهم على الباب من رجاله ، ولكنه لما رأى التيار قويا ضده حول الدفة ، وخطب في الحاضرين مرشحا لي بناء على جواب كتبه له أخوه من أوربا يوصيه فيه بانتخابي لو فاجأه القدر المحتوم.

وعلى كل حال فقد فشلت محاولات الخديو في إسقاط فريد خصوصا بعد أن وقف الأستاذ عثمان صبري صهر مصطفى كامل ، ومدير جريدة ذي إجبشيان استاندارد وألقى خطبة أوضح فيها أن فريد هو المرشح الوحيد لرئاسة الحزب بعد مصطفى كامل ، وقد وجدت هذه الفكرة ترحيبا من إجماع الحاضرين ونودي بفريد رئيسا للحزب الوطني(١) مما قلب خطط الخديو رأسا على عقب.

ولما علم الخديو بما حدث حاول ألا تفلت الأمور من يده أكثر من ذلك فطلب من فريد تليفونيا مقابلته بسراي عابدين ، وهناك هنأه على انتخابه وكان من ضمن عباراته

---

(١) الرافعي : محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية ص ٤٩ .

له " أن وجود مثلك على كرسي الحركة الوطنية مفيد جدا لأنك لست محتاجا ، ولا طالبا للمال ، ولأنك من عائلة خدمت البلاد .. ولا يمكن للإنجليز أن يقولوا عنك بأنك طالب شهرة أو مال أو وظيفة" كما عرض الخديو على فريد استعداده بالمساعدة بالمال ، ولكن فريد رفض ذلك بشدة حتى لا يكون مرتبطا بالولاء لأحد.

وهكذا نجح رجال الحزب الوطني في إحباط محاولات الخديو بمنع انتخاب فريد وأحداث انشقاق ونزاع بين أعضاء الحزب فقضوا على المؤامرة في مهدها ، ورأبوا الصدع ، وتم انتخاب فريد رئيسا للحزب الوطني ، وكذلك حدد فريد في أول لقاء له مع الخديو بعد انتخابه واستقلاله عنه ، ورفض أمواله حتى لا يسير طوع إرادته مما زاد من إصرار الخديو على ضرورة إسقاطه ، ووضع العقبات أمامه.

وقد حمل فريد زعامة الحزب الوطني وسط مصاعب جمة فلم تسر الأمور على المنوال التي سارت عليه رئاسة مصطفى كامل للحزب ، ويرجع ذلك إلى أن فريد تولى زعامة الحزب في وقت ظهرت فيه سياسة الوفاق بين الخديو والاحتلال فصارت الحركة الوطنية بزعامة فريد هدفا لحرب شديدة من جانب الاحتلال والخديو معا مما جعل فريد يضاعف من جهاده .

وقد أخذ فريد يشرف على تحرير جرائد الحزب الثلاثة ويوجه سياستها كما أنشأ في أوائل عهده بالرئاسة نادى الحزب الوطني وتولى هو رئاسته.

وقد حدد فريد مطالب الحركة الوطنية في مطلبين هما الجلاء والدستور وبذلك كان متفقا في خطته مع مصطفى كامل إلا أنه أبرز دعوة المطالبة بالدستور وجعل منها حركة عامة دعا إليها الأمة، ووجهها إلى مطالبة الخديو بالدستور بكتابة العرائض إلى قصر عابدين(١)، وقد أعد الحزب الوطني عرائض لتقديمها إلى الخديو بطلب مجلس نيابيٍ وإعادة دستور ١٨٨١ الذي ألغى بعد هزيمة العرابيين.

ويبدو أن فريد كان قد أقنع الخديو بضرورة منح الأمة المصرية مجلسا نيابيا ، وأن الخديو وافق على كتابة العرائض بطلب الدستور حتى إذا سافر إلى إنجلترا يتكلم

---

(١) محافظ عابدين : ديوان خديو ، التماسات جماعية ، محفظة رقم ١٢.

مع الملك إدوارد بخصوص منح المصريين الدستور ويثبت ذلك ما كتبه محمد فريد في مذكراته " كان الشروع في هذا العمل بالاتفاق مع الخديو حتى إذا سافر إلى إنجلترا يتكلم مع الملك إدوارد في ذلك ويظهر له ان الأمة المصرية تطلب الدستور وأنه يوافق على ذلك لأنه من حقوقها ".

وعلى كل حال فقد أخذ الحزب الوطني يجمع التوقيعات بطلب المجلس النيابي حتى وصل إلى خمسة وسبعين ألف توقيع ، ولما تبلورت خطورة هذه الحركة داخل البلاد سعى الاحتلال لإحباطها فأعلن وزير الخارجية البريطانية في مجلس العموم أن الخديو لا يمكنه أن يمنح بلاده دستورا أو مجلسا نيابيا إلا بعد استشارة الحكومة البريطانية ، وقد احتج الحزب الوطني على ذلك بشدة وانتقد ما تخوله إنجلترا لنفسها من الحق غير الشرعي في التدخل بين الأمة والخديو صاحب السلطة في منح أمته الدستور ففكر فريد بأنه خير لنا أن يبقى بلا دستور من أن ننالة بالاعتراف بأن للإنجليز حقا أو شبه حق في بلادنا.

وعلى الرغم مما أبداه الخديو من ارتياح في بداية الأمر إلى تقديم العرائض فإنه قابل اتساع هذه الحركة بالفتور ثم تغير موقفه حيالها وبوجه خاص بعد أن أظهر الاحتلال استياءه وأعلن جورست أن الشروط اللازمة لإقامة مجلس نيابي في مصر غير متوفرة والتفكير فيها يعتبر ضربا من الحماقة والجنون فخشي الخديو أن تتعرض سياسة الوفاق بينه وبين الإنجليز للخطر يضاف إلى ذلك ان فريدا اشترط أن يضع أحكام الدستور المنتظر في مجلس منتخب من الأمة مما جعل الخديو يتردد في الأمر .

ورغم ذلك فإن الحزب الوطني استمر في مطالبته بالدستور وجدد أساليبه في مطالبته به فبعد أن كانت المطالبة تقتصر على العرائض اتبع الحزب أسلوب المظاهرات الشعبية ، فكان يتجمع في حديقة الجزيرة الآلاف ثم تسير المظاهرة إلى قلب القاهرة منادية بالدستور ، وكان دور الطلبة خصوصا طلبة المدارس العليا بارزا في هذه المظاهرات ففي محطة طنطا قام الطلبة بمظاهرة وطنية أثناء مرور الخديو بها يطالبون بالدستور ، كما تظاهر الطلبة أثناء مرور موكب الخديو في القاهرة هاتفين

" الدستور يا أفندينا " وكان طلبة الحقوق يصعدون إلى سطح مدرسة مجاورة لقصر عابدين يرددون الهتاف للدستور ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد فقد تعقبت هذه الدعوة الخديو خارج مصر أيضا فقد طالب المصريون الموجودون في تركيا بالدستور أثناء زيارته للسلطان وعلا هتافهم " الدستور يا أفندينا " كما طالبه به الطلاب المصريون في إنجلترا أثناء زيارته لها. (١)

وقد تزايدت الهتافات بالدستور في كل مكان حتى أصبحت أقرب إلى نشيد وطني لا يظهر الخديو في مكان عام إلا ويواجه بها وأحيانا تختلط هذه الهتافات بزغاريد النساء(٢)

يضاف إلى ذلك أن الحزب الوطني حاول اتباع أساليب الضغط والتهديد مع الخديو حتى يمنح الأمة الدستور وذلك بأن يقدم أعضاؤه عريضة للخديو يطلبون فيها الدستور ، وإذا لم يتحقق مطلبهم في مدة شهر يتوقف المصريون كافة عن دفع الضرائب للحكومة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قام بعض رجال الحزب الوطني بإرهاب الخديو فأرسل له خطابات تهديد بنسف موكبه كما قاموا بوضع عوائق أمام القطار الخاص الذي كان يقوده الخديو بنفسه من مريوط إلى الإسكندرية ولكن الخديو تمكن من إيقاف القطار بصعوبة .

وبالرغم من أن حركة المطالبة بالدستور لم تسفر عن إعلانه بل زادت أن تقرب الخديو لقصر الدوبارة فإنها غرزت في نفوس المصريين التعلق بالحكم الدستوري والكراهية للحكم الاستبدادي كما أنها زادت من متاعب رجال البوليس في حفظ النظام في شوارع القاهرة مما سبب قلقا لسلطات الاحتلال .

وبالرغم من أن إحساس فريد بخطورة التصدى للخديو والإنجليز معا فإنه لم يجد بدا من التصدى لهما دون أن يبالي بغضبهما أو تحالفهما ضده فانتقد زيارات جورست المستمرة لقصر عابدين ، وأعلن عن تخوفه من النتائج السلبية التي تعود على الحركة الوطنية من جراء توثيق العلاقات بين الخديو والمعتمد البريطاني وكتب

---

(١) أوراق محمد فريد : مظروف رقم ٢٣.
(٢) مذكرات سعد زغلول : كراس رقم ٩

مقالات في اللواء تحت عنوان " ماذا يقولون " بدأ أولهما في ١١ أبريل ١٩٠٨ وفيها عرض بالخديو وسياسته وذكره بمواقفه السابقة من الانتصار للحركة الوطنية والدستور(١) كما فتح باب المناقشة في سياسة الوفاق يضاف إلى ذلك أنه سافر إلى فرنسا في مايو ١٩٠٨ للدفاع عن القضية المصرية والتقى ببعض رجال السياسة والقلم هناك كما سافر إلى إنجلترا ، وقابل المستر بلنت وبعض أعضاء البرلمان الإنجليزي وهناك طالب بالجلاء وإعادة الدستور ، وأوضح أن الحركة الوطنية لم تمت بوفاة مصطفى لأنها قائمة على أشخاص بل لها أسس وجذور في داخل الشعب المصري ، ومهما تغيرت الأشخاص فالمبدأ ثابت لا يتغير وهو جلاء الإنجليز عن مصر .

ولما حاول بعض النواب الإنجليز إقناع فريد بالتخلي عن مطلب الجلاء في سبيل بحث إعطاء مصر الدستور ، رفض ذلك الطلب بشدة وأوضح انه لا مساومة في موضوع جلاء المحتلين عن مصر.

وقد تضايق الخديو من محاولات فريد إفساد سياسة الوفاق فحاول أبعاده عن الاتصال بالجماهير وتخريب الندوات السياسية التي يقيمها الحزب الوطني فعندما سافر فريد إلى الزقازيق مع بعض رجال الحزب لإلقاء خطبة بمناسبة دخول إنجليز مصر تصدى لهم أنصار الخديو بالمحطة وحاولوا منع الاحتفال، ولكن لم يتحقق مسعاهم.

وقد جاهر الخديو بعدائه لفريد بعد أن فشل في احتوائه فرماه وأنصاره بالتسرع في حديث له مع مكاتب جريدة الطان الباريسية فقال " لقد اشتغلت دائما في ترقية بلادي وتقدمها في الحضارة ، ولكن للأسف وجد قوم متسرعون جدا أخروا تقدمها الطبيعي بإلحاقهم في مطالب سابقة لأوانها ومصحوبة بالضوضاء " وعرج في حديثه على الاحتلال وجورست فقال " ولي وطيد الأمل في القيام بمهمتنا بمساعدة البلد الذي يؤيد مصر تأييدا عظيما في رفع شأنها وتمدينها، وأن وجود ممثل هذا البلد السير الدون جورست بيننا يعتبر وثيقة لنا لتحقيق ذلك "

---

(١) اللواء في ١١ ابريل ١٩٠٨

وقد رد فريد على ذلك بمقالتين تحدث فيهما عن خطر سياسة الوفاق على القضية المصرية وانتقاد الخديو له بالتسرع.

وعلى كل حال فإنه يتضح من أحاديث الخديو انتقاده للسياسة العدائية التي كان يجري عليها الحزب الوطني ضد الإنجليز وتمسكه بسياسة الوفاق التي سار عليها جورست.

ولم تقتصر المضايقات الموجهة إلى فريد على الخديو والمحتلين فحسب بل شاركهم في ذلك علي فهمي كامل وبعض المنشقين على سياسة فريد ، فقد عمل علي فهمي كامل على تعطيل جريدة اللواء لإحراج مركز فريد فحرض عمال الجريدة على الإضراب عن العمل في نوفمبر ١٩٠٨ حتى تتحقق مطالبهم ، ولما لم ينجحوا في مسعاهم في تعطيل الجريدة أو السيطرة عليها قاموا بإنشاء جريدة مصر الفتاة لتعبر عن آرائهم وتنتقد سياسة فريد وتحارب اللواء ، ومع كل ذلك فقد تذرع فريد بالصبر ودعا كافة أعضاء الحزب إلى ضرورة لم الشمل والتضامن لمجابهة الدسائس التي تحاك ضد الحزب.

وقد تدفعنا مضايقات علي فهمي كامل لمحمد فريد إلى التساؤل عن سبب الخلاف الأساسي بينهما.

الواقع أن الخلاف كان يكمن في علاقة كل منهما بالخديو ففريد كان يمثل التيار المتشدد تجاه الخديو بينما علي فهمي كامل كان يتمسك بمبدأ الموالاة الشديدة له يضاف إلى ذلك أن علي فهمي كامل كان يعتبر أنه أحق من فريد برئاسة الحزب الوطني ، وأن فريدا اختلسها منه لذلك كان يحاربه في الباطن بينما يظهر له الود كما أن حب علي فهمي كامل الشديد للمال جعل من السهل على الخديو اجتذابه إلى صفه ضد محمد فريد ومحاولة إظهاره له بمظهر عدم القدرة على إدارة الحزب وصحافته.

ورغم كل هذه العقبات التي اعترضت فريد فقد سار في برناسجه الوطني لتحقيق الجلاء والدستور ، ومن أجل ذلك عمل فريد على تعليم الشباب حتى يتعرف على حقوقه فطالب بنشر التعليم الابتدائي بين جميع طبقاته فقيرها وغنيها ، وأن يكون

هذا التعليم إلزاميا ومجانيا لكل مصري ومصرية حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ، ويعرفون منذ نعومة أظفارهم ألا تفاوت بين الناس إلا بخدمة الوطن كما تبنى فريد مع نادى المدارس العليا فكرة إنشاء مدارس ليلية لتعليم الفقراء والعمال مجانا ، وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الشعب ، وبدأت الدراسة بأولها وهي مدرسة بولاق في نوفمبر ١٩٠٨ وعهد بالتدريس فيها إلى رجال الحزب الوطني وأنصاره فكان المحامي والطبيب والمهندس وغيرهم يخصصون من أوقاتهم ساعة أو أكثر كل مساء يقفون فيها في حجرة ضيقة خشنة يعلمون الفقراء مبادئ القراءة والكتابة ، وجغرافية بلادهم وتاريخها وقوانين المعاملات اليومية والأخلاق والآداب وغير ذلك من العلوم ، ومن داخل هذه المدارس نبتت فكرة إنشاء نقابة الصنائع اليدوية من أجل حماية العامل والفلاح من الفقر ، ومساعدته عند الشيخوخة ، ورغم أهمية هذه المدارس في القضاء على الجهل والأمية فإن الحزب الوطني اقتصر على افتتاحها في القاهرة ولم يكن للأقاليم منها نصيب.

وقد دعا فريد إلى وضع التشريعات لحماية العمال والعناية بشئونهم وتحديد ساعات العمل بالنسبة لهم ، وتحريم اشتغال الأطفال الذين تقل أعمارهم عن تسع سنوات في محالج القطن ، وتحريم عملهم في كافة المصانع ليلا ، كما عنى بتأسيس النقابات للدفاع عن حقوق العمال والمطالبة بترقية أحوالهم المادية والمعنوية فأنشئت ببولاق عام ١٩٠٩ أول نقابة عمال في مصر باسم نقابة عمال المصانع اليدوية ، كما دعا إلى إيجاد النقابات الزراعية لتقف ضد الظلم الفادح الذي يتعرض له الفلاح من الحكومة والملاك المرابين كما طالب بتخفيف الضرائب عن الأطيان ، وتحسين حالة الفلاح المسكين الذي يعمل هو وزوجته وأولاده ورغم ذلك لا يحصلون إلا على القوت الضروري .

وقد سرت فكرة تأسيس النقابات في عواصم الأقاليم فأنشئت نقابات لعمال الصنائع اليدوية في الإسكندرية والمنصورة وطنطا وغيرها على غرار نقابة القاهرة.

ونتيجة لدعوة فريد بالاهتمام بالعمال والفلاحين ذكر البعض أن الحزب الوطني أيام فريد كانت به لمسات اشتراكية ، ولكن الواضح أن مخطط الحزب الوطني الذي كان يفتقر إلى مثل هذه اللمسات الحقيقية لأنه لم يقدم على سبيل المثال منهجا علميا للإسهام في حل مشاكل الشعب الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يتعد دفاعه عن العمال والفلاحين الخطب والمقالات بهدف جذبهم إليه وبث روح النضال الوطني فيهم ، وتنظيمهم ليكونوا ركيزة للعمل الوطني إلى جانب المثقفين من أبناء الطبقة المتوسطة ولم يقتصر دور فريد الوطني في الكفاح على ذلك بل شجع على تأسيس جمعيات للطلاب المصريين الذين يدرسون في الخارج بهدف الدفاع عن قضية استقلال مصر(١) ثم عقد المؤتمرات في أوربا لشرح حقيقة القضية المصرية يضاف إلى ذلك الاشتراك في المؤتمرات التي تعقد في أوربا لإظهار حقوق الشعوب المغتصبة بهدف تكوين رأي عام يناصر القضية المصرية.

وفي محاولة للحد من نشاط فريد الثوري والقضاء على الروح الوطنية قامت حكومة بطرس غالي بتقييد حركة الصحافة فأعادت في مارس ١٩٠٩ العمل بقانون الصحافة القديم الصادر في نوفمبر ١٨٨١ والذي يخول لوزارة الداخلية حق إنذار الصحف وتعطيلها مؤقتا أو نهائيا دون محاكمة أو دفاع ، كانت حجة الوزارة في ذلك هو ردع الجرائد التي تجاوزت الحدود، ووقف الفوضى التي تتعرض لها البلاد.

وقد احتج الحزب الوطني على إعادة هذا القانون الذي يكمم أفواه الوطنيين وظهر ذلك واضحا في المظاهرات التي قامت في القاهرة احتجاجا على تقييد حرية الصحافة ، وفي برقيات الاحتجاج التي أرسلت للخديو والوزراء وعلى كل حال فقد حوكم الشيخ جاويش بمقتضى هذا القانون لنشره مقالا باللواء تحت عنوان " ذكرى دنشواي " اعتبرته النيابة طعنا في حق بطرس غالي رئيس المحكمة المخصوصة التي حاكمت المتهمين ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة شهور، كما أنذرت جريدة اللواء لنشرها مقالا عن شاب هندي يدعى (دنجرا) عدتها تحريضا على ارتكاب الجرائم

---

(١) منبر الشرق في ١٥ / ٨ / ١٩٥٢ تحت عنوان مذكرات الشيخ الغاياتي.

لال دلامس والنظام كما أمعنت الحكومة في عدو ب على ضمانات لحر ه سية فأصدرت ما يعرف بقانون النفي الإداري وبمقتضاه يكون الحق للحكومة أن الأشخاص الذين ترى فيهم خطورة على الأمن العام ولم تقتصر جهود الحكومة سية على الافتئات على حقوق الأفراد بل حاولت أيضا الافتئات على حقوق الأمة رة امتياز قناة السويس الذي كان ينتهي العمل به عام ١٩٦٨ أربعين عاما أخرى لير أربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الشركة لها ، ورغم أن هذا المشروع قد ي طي الكتمان حوالي سنة فإن محمد فريد تمكن من الحصول على نسخة وع في أكتوبر ١٩٠٩ ونشرها في جريدة اللواء موضحا مدى الغبن الذي ض له مصر من ورائه وكان ذلك بمثابة صيحة الخطر فاهتمت الأمة بطوائفها افتها بهذا الموضوع ورأت الأحزاب ضرورة الاتفاق على طريقة واحدة(١) كما الصحافة ضرورة عرض المشروع على الجمعية العمومية قبيل البت فيه لخطورة المسألة اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطني في ٢٩ أكتوبر ١٩٠٩ ت قيمة المشروع السياسة والمالية ، وطالبت الحكومة بأخذ رأي الأمة قبل تنفيذ ع كما أرسلت البرقيات الجماعية إلى الخديو رفض فيها أصحابها تجديد امتياز وطالبوا بعرض الموضوع على الجمعية العمومية.

ونظرا لما آلت إليه البلاد من الغليان حاول الخديو إقناع جورست بعرض ع على الجمعية العمومية ومع أن جورست لم يعترض على ذلك إلا أنه اشترط ق الحكومة على المشروع أولا ثم تترك أمر تنفيذه لموافقة الجمعية العمومية ن يدافع سعد زغلول عن المشروع أمامها ونتيجة لذلك قامت الوزارة بدعوة ة العمومية للانعقاد لإحالة المشروع عليها.

ولكي تتضح مخاطر المشروع أمام الرأي العام قام فريد بتوضيح أبعاده ة فقال " كيف يجوز لهذه الحكومة أن تتساهل في أمر إطالة أمد هذه الشركة مع ن هذه القناة كانت السبب في ضياع استقلال مصر ، وأن كل مصري يتوق لأن

ات سعد زغلول ، كراس رقم ١٧ ص ٨٩٧

يراهد ملك لمصر " ... صاحب فريد بحفظ مرافق الأمة في أيدي أبنائها . وهاجم تسليم مرافق البلاد إلى الشركات الإنجليزية ، وناشد أعضاء الجمعية العمومية الاستقلال في الفكر والشجاعة الأدبية لأن مصالح الأمة فوق كل شيء كما دعا الحزب الوطني إلى القيام بمظاهرة وطنية عند اجتماع الجمعية العمومية للمناداة برفض المشروع.

وعندما افتتحت جلسات الجمعية العمومية برئاسة الأمير حسين كامل في فبراير ١٩٠٩ لمناقشة هذا الموضوع حاولت الحكومة استعمال الشدة مع الأعضا لكي يوافقوا على المشروع فقد كان بطرس غالي يعتقد أن المشروع نافع للبلاد كما كا الأمير حسين يؤيد المشروع ولكن الأعضاء أصروا على رفضه ، وفي فبراير شكلد الحكومة لجنة مكونة من خمسة عشر عضوا لدراسة المشروع وكتابة التقرير عنه وقد انتهت اللجنة الى عدة قرارات أهمها ما يلى:

- عدم قبول مشروع الاتفاق المعروض على الجمعية لأنه ليس في صالح البلا بل يعد غبنا فاحشا على مصر ، ونظرا للمعارضة الشديدة للمشروع في الجمع العمومية لم يجد الأمير حسين بدا من الاستقالة من رئاسة جلسات الجمعية العموم خصوصا بعد أن فشل في تحويل دفة المناقشات لصالح الحكومة.

واستمرت المناقشات في الجمعية العمومية ، وفي النهاية تقرر رفض المشرو بأغلبية الآراء ، فكانت هذه المرة الأولى التي استطاعت فيها الجمعية العمومية فرض رأيها على الحكومة.

وهكذا نجح ضغط الرأي العام المصري في إجبار الإنجليز والوزارة عل العدول عن مشروع له مساس كبير بالاقتصاد المصري مما أقلق مضاجع الإنجل والحكومة فبدأوا في تحين الفرص لإرهاب زعماء الحركة الوطنية ، ومهدت لذا جريدة المقطم باتهامها لرجال الحزب الوطني بالثورية المتطرفة التي تختزن السلا وتتحين الفرصة للقيام بثورة تطيح بالنظام القائم(١).

---

(١) المقطم في ٢٥ ... ١٩٠٩

ونتيجة للاضطهاد السياسي الذي تعرض له زعماء الحزب الوطني وأنصاره لجأت سياسة الحزب إلى تشجيع الأفكار الإرهابية وتدعيم التنظيمات السرية ، كما تبنت اللواء اساليب الكفاح الثورى في الهند وأشادت بدور الطلاب الهنود في مقاومة الاستعمار البريطاني.

ويبدو أن فريدا قد شجع على أسلوب العنف الثوري فتألفت تحت رعايته جمعيات من البلدان الأوربية التي بها طلاب مصريون للدعاية للقضية المصرية ، وقد استطاع هؤلاء الشبان أن يثيروا قضية مصر في البلدان التي يقيمون فيها ، ومن خلال هذه الجمعيات السرية، وتدرب الطلاب على استعمال الأسلحة والمفرقعات لتخليص بلادهم بالقوة ، وكان فريد يزورهم وقد أهدى إليهم في إحدى هذه الزيارات مسدسات ، كما كان إبراهيم الورداني وشفيق منصور يزوران الطلاب لتجديد العهد بينهم كل عام.

ومع ازدياد نشاط هذه الجمعيات السرية الذي صحبه ازدياد في شعبية الحزب الوطني توقع البعض أنه كان من الممكن حدوث ثورة مسلحة في البلاد ، ولكنها لم تحدث أمام سياسة الاضطهاد التي اتبعها الإنجليز والحكومة ضد الحزب الوطني.

وعلى كل حال فقد ظل فريد متمسكا باستقلاله عن الخديو مما جعل العداء مستحكما بينهما حتى وصل الأمر بفريد أن رفض الوقوف أثناء عزف السلام الخديو في حفل لرعاية الأطفال بدار الأوبرا مما استرعى أنظار الحاضرين ، وأحدث ضجة في داخل السراي ، ولما خاطب حسين رشدي محمد فريد في هذا الشأن أجابه بأنه ليس هناك قانون يحتم عليه الوقوف ، وكانت هذه الظاهرة بمثابة إعلان محمد فريد حربا عدائية ضد الخديو وخروجا على التقاليد المرعية.

ولتمكين قبضة الحكومة من السيطرة على الموقف قام رجال البوليس السياسي بمراقبة أعضاء الحزب الوطني ، وكتابة التقارير اليومية عن أحوال البلاد ، وذلك بناء

على طلب الثورة كرومر (١) الذي أراد تصفية العناصر الوطنية ذات الميول المتطرفة عن طريق تعريضهم للمحاكمات والإرهاب وشتى ضروب الاضطهاد.

ونتيجة لاغتيال بطرس غالي أمعنت الحكومة في محاربة الحركة الوطنية فصدرت ثلاثة قوانين تعطي الصفة القانونية للحكومة في تصرفاتها المطلقة تجاه الصحافة والمطبوعات ، ومظاهرات طلاب المدارس ، وتعديل قانون العقوبات ، وقد استهدفت الحكومة من هذه القوانين التنكيل برجال الحزب الوطني وهذا ما حدث فعلا فقد قدم كل من الشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد في أغسطس ١٩١٠ إلى المحاكمة بتهمة كتابة مقدمة لكتاب وطنيتي الذي ألفه الشيخ علي الغاياتي وتضمن التنديد بالظلم وبحكم الفرد ، فقد تحدث الغاياتي عن استسلام ملك فرنسا لويس السادس عشر لإرادة حاشيته الظالمة وزوجته المسرفة المستبدة ماري انطوانيت التي كانت تحتقر الشعب الفرنسي ، كما بين هذا الكتاب أن إرادة الشعب كانت دائما فوق كل إرادة ، وأن الويل دائما لاحق بالحكومات إذا غضبت عليها الشعوب(٢).

كما تضمن هذا الكتاب تنديدا بحكم الخديو المطلق وإسرافه فكتب علي الغاياتي يقول " يأخذ الحاكم المستبد أموال الأمة بإحدى يديه ، ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى فهو يجبيها ليشبع ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعتز ثم يسد في وجهها مناهل العلم لتنفسح أمامه مناهج الظلم " ثم هدد الحكام الظالمين بقوله " لكن يوم الظالمين يوم عصيب . هنالك يغير الله حالا بعد حال وتستوي الأمة على عرشها تدير دفة الحكم بيدها.

ومع أن جميع القصائد التي احتواها الكتاب قد سبق للصحف نشرها فقد نبهت جريدة المؤيد السلطات إلى خطورة الكتاب مما دفع الحكومة إلى مطالبة النيابة بالتحقيق فيما ورد بالكتاب فأمرت بمصادرته ووجهت تهمة التحريض على جريمة القتل السياسي والعيب في حق الذات الخديوية ، والحض على كراهية الحكومة إلى محمد فريد وعبد العزيز جاويش وعلي الغاياتي ، ولما كان محمد فريد في أوربا

---

١) انظر ص ٢٧ ك ٢

٢) علي مبارك ، الخطط ج ٢ ص ٢١

لك الوقت للدفاع عن القضية المصرية بمؤتمر السلام باستوكهلم فقد أحلت محاكمته حين عودته بينما حكم على الشيخ الغاياتي غيابيا (وكان قد خرج سرا من القاهرة إلى لأستانة) بالحبس لمدة سنة ، كما حكم على الشيخ عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة شهور.

ومع أن خصوم محمد فريد قد أشاعوا أنه لن يعود خوفا من الحكم عليه ، فإنه في هذه الشائعة وهو في أوربا وعاد إلى مصر بعد أن كتبت كبرى بناته الآنسة فريدة خطابا تذكر له فيه الشائعات وتطلب منه العودة إلى بلاده بقولها " ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ جاويش فذلك أشرف من أن يقال أنكم هربتم وما تحملتم الهوان في سبيل وطنكم وباسم الوطنية والحرية التي تضحون بكل عزيز في سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن.

وعاد فريد إلى مصر بعد أن جاهد في أوربا في سبيل الدفاع عن قضيتها ، وبدأت النيابة التحقيق معه في ٤ يناير ١٩١١ وقد تولى استجوابه محمد توفيق نسيم ، ونظرت القضية أمام محكمة الجنايات بالقاهرة في ٢٣ يناير ١٩١١ ، وأصدرت المحكمة حكمها بحبس محمد فريد ستة شهور مع النفاذ ، فقابلت الأمة هذا الحكم من كبيرها إلى صغيرها بالاستياء الشديد.

وعند مراجعتنا للمقدمة التي كتبها محمد فريد لكتاب الشيخ الغاياتي وهي بعنوان " تأثير الشعر في تربية الأمم " والتي حكم عليه بسببها بالسجن ستة أشهر نجد أنها لا تمثل أي مسئولية قانونية فقد تحدث فريد عن أثر الشعر في إيقاظ الأمم من سباتها ، وهاجم استبداد حكومة الفرد لإماتتها للشعر الحماسي دون أن يذكر اسم هذه الحكومة ودعا الشعراء إلى عدم تملق الأمراء والتقرب من الوزراء لأن " الحكام زائلون والأمة باقية " وهذا التعبير ربما لا يختلف فيه اثنان.

ويبقى لنا أن نتساءل لماذا حكم على فريد بستة شهور وحكم على الشيخ جاويش بثلاثة شهور مع أن التهمة الموجهة إليهما واحدة.

الواقع ان محاولة الحكومة التنكيل بفريد وارهابه حتى يعدل عن موقفه العدائي من الاحتلال كانت السبب وراء هذا الحكم الذي لا يتناسب مع التهمة الموجهة إليه فمسئوليه فريد في نظر الحكومة لا تقف عند المقدمة التي كتبها لكتاب وطنيتي بل ترجع الى خططه المناوئة لها ، وإلى مبادئه التي نشرها وإلى خطبه التي أثرت في نفوس الكثيرين وقد يسأل البعض أن القضاة وليس الحكومة هو الذي حكم على فريد بذلك الحكم الجائر أقول أن إحالة الحكومة لجنح الصحافة إلى محكمة الجنايات مع حرمان المتهم من الضمانات ربما تكون هي التي أدت إلى مثل هذا الحكم الجائر.

وعلى كل حال فإنه بعد صدور الحكم على فريد تم عمل استفتاء في جريدة الشعب لمعرفة رأي علماء القانون عن السبب في الحكم على فريد بستة شهور بينما حكم على الشيخ جاويش بثلاثة شهور مع أن التهمة واحدة فكانت الحجة أن فريد يعرف القانون اكثر من الشيخ جاويش.

ولقد تلقى فريد الحكم برباطة جأش ودخل السجن ، وهناك بدأت مساومته فوعده بعض أنصار الاحتلال والخديو بالعفو عنه إذا وعد بتغيير خطته فرفض بكل شمم وقضى مدة الحبس في سجن الاستئناف بباب الخلق صابرا ثابتا وبعد خروجه من السجن كتب مقالا عنوانه من سجن إلى سجن عبر فيه عن شعوره وهو في السجن عند خروجه منه فقال " مضى علي ستة أشهر في غيابات السجن ، ولم أستشعر بالضيق إلا عند اقتراب أجل خروجي لعلمي أني خارج إلى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية الذي تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال ". كما أعلن فريد أن حبسه لم يؤثر في نمو الحزب الوطني وانتشاره ومبادئه بين طبقات الشعب.

وهكذا كان مسلك فريد قبل وبعد دخوله السجن تشريفا للوطنية المصرية ، ومثلا ينير طريق المجاهدين ، فرغم أنه سليل الأغنياء والأمراء فقد دخل السجن وتحمل مشاقه ، ولم يقبل مساومة الخديو وأنصاره ، وخرج من السجن وهو أقوى صلابة.

والجدير بالذكر أنه في أثناء سحن فريد تصدعت سياسة الوفاق بوفاة المعتمد البريطاني جورست في ١٢ يولية ١٩١١ وتعيين كتشنر الذي لم يكن من أنصار سياسة الوفاق ونتيجة لذلك سعى الخديو إلى الحزب الوطني ليعدل من موقفه حياله ، ولكن فريدا رفض أن يجعل للحزب أية صلة به ، ورغم الاضطهاد الذي تعرضت له جرائد الحزب خصوصا صدور الأوامر بغلقها بحجة سلوكها المناوئ للحكومة فقد كان فريد يتغلب على ذلك بإصدار صحيفة أخرى في نفس اليوم الذي يتقرر فيه غلق صحيفة الحزب تحت اسم آخر فأصدر الحزب الوطني جريدة الشعب بعد أن أغلقت السلطات جريدة العلم ، كما استأنف فريد نشاطه في أوربا وتركيا دفاعا عن القضية المصرية.

وعندما ألقى فريد خطابه السنوي في الجمعية العمومية للحزب الوطني في ٢٢ مارس ١٩١٢ ندد فيه باقتراح اللورد كتشنر إنشاء صندوق توفير للزراع ، وطالب أن يكون ذلك بأيدي صرافي البلاد كما طالب بالدستور وأنهى حديثه بقوله " اللهم طهر قلوبنا من أدراء النفاق ونقى أفئدتنا من جراثيم الخنوع والاستسلام حتى ندرك أن لنا كرامة تجب المحافظة عليها ، ووطنا يجب الدفاع عنه بالأنفس والأموال وحقا في الحرية تجب المطالبة به ".

ومع أن هذه الخطبة كانت خفيفة اللهجة عن خطب فريد السابقة فإن الحكومة التي كانت تتربص به رأت أن إلقاء فريد في السجن يحد من نشاطه الوطني ، ويرهب باقي الوطنيين لذلك أرسلت له إخطارا على يد ضابط بوليس يتضمن استدعاءه إلى النيابة لاستجوابه عما ورد بخطبته ، ولما أحس فريد بنية الحكومة تجاهه فكر في مغادرة البلاد إلى الخارج وقد أوضح ذلك في مذكرة بقوله " ومن هذه اللحظة صممت على ترك مصر(١)".

ولما كان أمر مغادرة زعيم الحزب الوطني للبلاد له خطورته في التأثير على الحزب فقد استشار أعضاء اللجنة الخاصة بمناقشة المسائل المهمة في الحزب ، وعن ذلك يذكر " خابرت صادق بك رمضان وفؤاد بك سليم ومحمود بك فهمي المحامي

---

(١) مذكرات محمد فريد حـ ١ القسم الأول ص ١٧

وإسماعيل لبيب وإسماعيل حافظ أعضاء اللجنة الخصوصية التي كنا قد شكلناها للمداولة في مسائل الحزب الهامة قبل عرضها على اللجنة الإدارية ، وفي صباح يوم الاثنين نزلت بالقطار من محطة الحلمية حيث كنت ساكنا إلى محطة الزيتون وقصدت منزل الدكتور صادق وأخبرته بالحادثة وبعزمي على السفر فوافق واتفقنا على الاجتماع بمنزل إسماعيل بك لبيب بالحلمية الجديدة بعد الاستجواب ".

وذهب فريد إلى النيابة لاستجوابه وبعد الاستجواب سمح له بالانصراف فذهب إلى منزل إسماعيل لبيب حسب الاتفاق ، وهناك قص على زملائه ما دار في التحقيق فقرروا بالإجماع مغادرته للبلاد.

وقد أوضح فريد الطريقة التي غادر بها أرض الوطن فقال " ذهبت إلى نادي الحزب الوطني وذهب إسماعيل بك إلى محل كوك للاستعلام عن السفن المسافرة إلى الخارج فوجدنا أن الوابور الروسي " الملكة أولجا " يسافر إلى الأستانة وبيريه في يوم الثلاثاء فقررنا السفر بالكيفية الآتية وهي أن إسماعيل لبيب يقطع تذكرة لنفسه للأستانة وأنا أسافر من مصر يوم الثلاثاء بإكسبريس الصباح الساعة السابعة كأني مسافر إلى الإسكندرية للمرافعة في قضية بمحكمة الاستئناف المختلطة ثم أرافقه إلى الوابور فإن ضبطت أو تعرف البوليس علي أقول بأني أحجز لوداعه وبما أني ساكن بمفردي بلا شنط أو ملابس بل بلا تذكرة سفر فلا يمكن لأحد أن يظن بأني مسافر.

ومع أن الوقت كان ضيقا أمام فريد ، والظروف تقتضي منه الإسراع في العمل لأن الحكومة كانت جادة في استصدار أمر بالقبض عليه فإن أمرا هاما كان يشغل باله وهو الطريقة التي يمكنه عن طريقها إبلاغ زوجته بما اعتزم عليه فقد حرص على عدم إزعاجها ، ولكنه لم ير بدا من أن يفضي إليها بالأمر فأفهمها بضرورة سفره وأوصاها بالصبر والجلد وطلب منها أن لا تخبر أولاده ولا أحدا من أسرته بما اعتزم عليه حتى لا ينزعجوا.

وفي صباح الثلاثاء ٢٦ مارس استقل فريد القطار فقابله كثيرون من إخوانه وأصدقائه فأخبرهم أنه ذاهب إلى الإسكندرية للترافع في قضية بالمحكمة المختلطة ،

رقد رافقه في القطار إسماعيل لبيب وتغذيا بالإسكندرية ثم قصدا الباخرة الروسية المزمع ركوبها ، وكان إسماعيل لبيب قد اشترى لنفسه تذكرة السفر أما محمد فريد فقد ركب بدون تذكرة حتى لا يعرف أحد عزمه على السفر فيحجزوه.

واحتجب فريد في محل الأدب نحو عشر دقائق عند مرور مفتش الباخرة فلم يلحظ أحد وجوده(١) وبعد تحرك الباخرة دفع فريد ثمن التذكرة معتذرا بأنه لم يجد الوقت الكافي لأدائه في مكتب الشركة بالإسكندرية .

وعلى كل حال فقد خرج فريد من مصر واختلف الكتاب والباحثون حول طبيعة هذا التصرف فمنهم من يعتبر خروجه تصرفا خاطئا لأن المناضل يجب أن يكون في أرض المعركة لا في خارجها وأن خروجه من مصر قد عزل قيادة الحركة الوطنية عن الجماهير ونقل قيادتها من مركز إشعاعه إلى الأستانة ودول أوربا ، وأنه ترك شعبا أحبه والتف حوله وأعجب به ومنح التأييد لحزبه ما لم يمنحه لأي حزب آخر وكان يجب عليه ألا يترك مصر لأنها مركز الجهاد الحقيقي وان دخوله السجن فيه تعبئة للرأي العام وإيقاظها لهمم الناس ، وشحذا لوطنيتهم وأنه كان من الممكن الإفراج عنه بقوة الضغط الشعبي.

ومن الكتاب والباحثين من يرى أن خروج فريد من مصر كان تصرفا صحيحا لأنه كان في نية الحكومة شل حركته وإبقاؤه رهن السجون بواسطة سلسلة من المحاكمات التي لا تنتهي بحيث إذا خرج من سجنه تدبر له تهمة جديدة يدخل بسببها السجن ثانية كما أن خروج فريد من مصر سيتيح له متابعة جهاده من الخارج ويمكنه من أن يسمع العالم صوت مصر ، ويدافع عن قضيتها في عالم الحرية حيث كان الرأي العام العالمي في حاجة إلى فهم واضح لأبعاد القضية المصرية ، كما أن التنظيمات الطلابية خارج مصر كانت في حاجة إلى جهود محمد فريد الذي يعتبر رجل التنظيم السياسي في مصر(٢).

---

١) مذكرات محمد فريد حـ ١ القسم الأول ص ١٧
٢) الجمهورية في ١٦ / ١٠ / ١٩٦٩

وهناك فريق يرى أن خروج فريد من مصر كان من اجل مارحتة امرأة فرنسية كان يحبها وهي " دي روشبرون ".

ومن وجهة نظرنا فإن نقل فريد لميدان الكفاح في الخارج رغم أنه يعتبر استمرارا لمواصلة الجهاد وتاليبا للرأي العام الأوربي على الإنجليز فإنه أضر بالحركة الوطنية في الداخل، وأصاب حركة الانبعاث الثوري بالانكماش والعنف لأن مكان الزعيم لا بد أن يكون في قلب المعركة لا في خارجها مهما كانت ضراوة المؤامرات أو قسوة الاضطهاد.

وعلى كل حال فقد تابع فريد جهاده من الخارج وكان أول عمل بارز هناك هو حضوره مؤتمر السلام في جنيف في ٢٢ سبتمبر ١٩١٢ ومطالبته بجلاء الإنجليز عن مصر ، وإقناع أعضاء المؤتمر العالمي بوجوب الجلاء عن مصر وعدم مشروعية الاحتلال.

والجدير بالذكر أنه بعد خروج فريد من مصر سادها جو من الإرهاب وكثرة الوشايات، واستهدف الوطنيون لشتى الضروب من الاضطهاد فأخذت الحكومة في مطاردة الحركة الوطنية وضرب نطاق التجسس حولها كما أنها أخذت تراقب تحركات فريد بأوربا فأرسلت محمد بدر رئيس قلم الضبط بوزارة الداخلية لمراقبته ، خصوصا وأنها كانت تخشى على الطلبة المصريين في أوربا.

وكان طبيعيا بعد هجرة فريد من مصر وما تبعه من هجرة العشرات من قادة الحزب الوطني أن تبددت جهود الحركة الوطنية فتوقفت حركة إنشاء النقابات ومدارس الشعب ، وانقسمت اللجنة الإدارية للحزب على نفسها. فقد زاول الحزب نشاطه في مصر دون قيادة مباشرة مما أدى إلى تدهور أحواله ويتضح ذلك جليا من الرسالة التي بعث بها أحمد وفيق أحد أعضاء الحزب إلى فريد إذ يقول فيها " أما نوم الحزب من بعد سبتمبر ١٩١٢ .... فقد كان عميقا فإذا سمحت لي أن أقول أن النوم ابتدأ بعد

فارقتكم لسلب البلاد التعسة ، فإني أقسم لك أني لو كنت أعرف أن مصير حركتنا سيكون كذلك بعد هجرتكم لكنت أول من ألقى القبض عليك(١).

وقد صار الحزب يتدهور من سيئ إلى أسوأ فقد بيعت أمتعة نادي الحزب الوطني بالمزاد العلني في ٢٢ مايو ١٩١٣ وفاء للديون المستحقة على إيجار المبنى، وبدا أن الحزب قد صفي ، ولم تبق إلا جريدة الشعب التي كان محرروها لا يبحثون إلا عما يسد رمقهم.

ويبدو أن فريدا قد شعر بفداحة خطأ خروجه من مصر ففكر في العودة إليها ، وطلب من مدام روشبرون السعي له لدى كتشنر والحكومة المصرية للسماح له بالعودة إلى مصر ولكنها لم توفق في مسعاها.

وفي الوقت الذي كان فيه فريد في منفاه بأوربا يدافع عن القضية المصرية دبر بعض عملاء الخديو من اللجنة الإدارية للحزب الوطني مؤامرة لإقصائه عن رئاسة الحزب بعد هجومه العنيف على الخديو في الصحف الأوربية واتهامه بالاتفاق مع بريطانيا على إعلان الحماية على مصر وفصلها عن الدولة العثمانية في مقابل تسميته خليفة للمسلمين.

ومن أجل هذا الغرض عقدت اللجنة الإدارية للحزب اجتماعا استنكرت فيه مقالات فريد ضد الخديو ، وقررت مساءلته فيما نسب إليه ولما بلغ فريدا ذلك أرسل برقية إلى علي فهمي كامل وكيل الحزب يعلن فيه استقالته بشرط عرض الأمر على الجمعية العمومية للحزب ، ولكن علي فهمي كامل لم يجرؤ على دعوة الجمعية العمومية لبحث استقالة فريد ففشلت المؤامرة.

ونتيجة لمحاولات كتشنر المستمرة لسلب حقوق الخديو والغض من شأنه سعى الخديو لاستعادة علاقته بزعماء الحزب الوطني حتى يتمكن من مواجهة تسلط المعتمد البريطاني فبدأ اتصالاته بمحمد فريد سرا خشية عيون الاحتلال ، ولكن فريد تشكك في نوايا الخديو، ورفض أن يجعل للحزب الوطني أية صلة به.

---

(١) أوراق محمد فريد - مظروف رقم ١٣

وتعددت المساعي من أجل التوفيق بين فريد والخديو فتقابلت مدام روشبرون مع فريد في محاولة لإقناعه بالصلح مع الخديو وقد أخبرها فريد بأنه يقبل الصلح بشرط أن يكون الكلام بينه وبين الخديو بدون وسيط(١) ولما كان الخديو يخشى أن يصل نبأ مقابلته لفريد إلى عيون الاحتلال تأخر إتمام الصلح وأرسل الخديو إلى فريد أحد أصدقائه منذ عهد الدراسة وهو توفيق بك زاهر القاضي لمفاتحته في موضوع الصلح بينهما ، ولما عرض الأمر على فريد ذكر أنه لا يعارض في إتمام الصلح بشرط أن يتصل الخديو برجال الحزب الوطني في مصر ويقبل شروطهم.

واستمر الخديو يبذل محاولاته لجذب فريد إلى صفه فأرسل بعض رجاله لهذا الغرض ، وأخيرا وافق فريد على الصلح مع الخديو بشرط أن يوافق الخديو على إعلان الدستور.

وقد تمت المقابلة بين فريد والخديو في الأستانة حيث تم الصلح بينهما ووعد الخديو بإصدار مرسوم يعلن فيه الدستور كما عبر عن ارتياحه للصلح مع فريد الذي وصفه بأنه رجل مبادئ لا يتغير مهما قاسى في سبيل المحافظة على مبادئه ، وتنفيذا لوعد الخديو أصدر منشورا في ١١ نوفمبر ١٩١٤ بإعلان الدستور الكامل في مصر ولكن قيام الحرب وإعلان الأحكام العرفية وعزل عباس الثاني حالت جميعها دون تنفيذه.

وكان طبيعيا بعد أن أعلن الإنجليز حمايتهم على مصر وتمسكوا باحتلالها أن ينضم فريد إلى الجانب المعادي لإنجلترا، وكان عليه أن يستعين بالقوى الدولية المناوئة لهم وبوجه خاص تركيا وألمانيا ، ولما اتفقت مصلحة كل من تركيا وألمانيا مع مصلحة الحزب الوطني على ضرورة إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقصد طرد الإنجليز منها تشكك فريد في نوايا الأتراك إذا ما نجحت الحملة مما دفعه إلى أن يطالب زعماء الأتراك أن يعلنوا أن هدفهم من الحملة هو استقلال مصر وجعلها ولاية ذات طابع خاص كما أن فريدا كان يتشكك أيضا في نوايا الألمان نحو الوطنية المصرية وعلى

---

(١) مذكرات محمد فريد ملف رقم ٢ ص ٦٤.

كل حال فقد فشلت الحملة التركية على مصر كما حالت الحرب بين فريد ومن بين نشاطه الوطني في أوربا ، وذلك لتوقف معظم الصحف عن الصدور ، وصعوبة اتصال الدول ببعضها ، وانشغال الناس بأخبار الحرب يضاف إلى ذلك أن الدعم المادي الذي كان يصل إلى فريد من مصر قد توقف فقد كان يصله قبيل نشوب الحرب من عائلته مبلغ عشرين جنيها شهريا ، ولكن نشوب الحرب أدى إلى انقطاع هذا المبلغ عنه فاشتدت به الضائقة المالية لدرجة انه رهن بعض ثيابه لدى المرابين اليهود في ألمانيا ، كما كان يقتصد من نفقاته فسكن في غرفة واحدة ، وكان يتغذى بفرنك واحد ثم يأكل غذاءه بكوز من الذرة المشوي وذلك اقتصادا في النفقات.

كما أنه لم يجد العناية الطبيعية الكافية عند إصابته بمرض الاستسقاء لقلة نقوده ، وأشيع أنه كان يحتطب لكسب قوت يومه وأنه كان يلبس بدلة مرقعة.

وهذا لا يعيب فريدا في شيء ، ولا يخجلنا أن نذكره ففريد الذي ولد كما يولد أبناء الأمراء ، وعاش في بداية حياته كما كان يعيش أبناء الحكام وصل به الحال كما ذكرنا من أجل مصر ، ومن أجل التمسك بالمبادئ ، وهذا شرف كبير ليس لفريد فحسب بل يعتبر هالة فخار للوطنية المصرية أيضا.

ولما وضعت الحرب أوزارها في نوفمبر ١٩١٨ وعقد الصلح في باريس أرسل محمد فريد تقريرا في ٥ ديسمبر ١٩١٨ إلى الرئيس الأمريكي ويلسون يطلب فيه استقلال وادي النيل وضرورة تمثيل مصر في مؤتمر الصلح وقبولها في عصبة الأمم.

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ لاحت على شفتي محمد فريد ذلك الزعيم الغائب عن وطنه وأمته وأهله وزوجته ابتسامة الأمل ، ووجه لأمته من بعيد أعظم تحية لثورتها فقال " نشكر الله على هذه النتيجة الحسنة التي دلت على أن ما ألقاه مؤسسوا الحركة الوطنية من البذور في تلك الأراضي الخصبة قد نبت وترعرع ساقه ثم أزهر وظهرت ثماره(١).

(١) الرافعي ثورة ١٩١٩ جـ ١ ص ٦٧.

كما أرسل فريد يطلب من مؤتمر الصلح التدخل لتقرير مصير الأمة والاعتراف باستقلال وادي النيل استقلالا تاما ، ومنع عسف المحتلين بمقدرات الشعب المصري.

وعندما سافر الوفد المصري إلى باريس برئاسة سعد زغلول لم يتصل أحد من أعضائه بفريد رغم تأييده لهم وكتابته برقية إلى سعد يتمنى فيها التوفيق والنجاح للوفد في مهمته فإن سعدا لم يرد عليه ، وقد يرجع ذلك إلى سببين :

١- رغبة سعد في ألا تعرقل مساعي الوفد في مؤتمر الصلح بسبب انحياز فريد إلى جانب الألمان خلال الحرب.

٢- ما بين سعد وفريد من حزازات قديمة ، وإن كانت الوطنية الحقة تجعل الأفراد يتركون حزازاتهم جانبا في مواجهة الأخطار التي يتعرض لها الوطن.

وبعيدا عن الأهل والوطن اشتدت علة المرض بفريد حتى وافاه الأجل في ١٥ نوفمبر ١٩١٩ ، وكان رجال الوفد في باريس في ذلك الوقت فعرض بعضهم على سعد زغلول السفر إلى ألمانيا لنقل رفات فريد إلى مصر وعمل اللازم نحو تكريمه ، ومشاركة الأمة في أحزانها فكان رد سعد هو رفض طلبهم بإصرار بحجة أن أموال الوفد يلزم أن تصرف على القضية المصرية لا على جنازات الأفراد.

ولم ينل شرف نقل رفات فريد أحد من رجال الوفد بل نال هذا الشرف الحاج خليل عفيفي أحد التجار بالزقازيق فنقل رفاته على نفقته الخاصة ، ووصل جثمان فريد إلى القاهرة في يونية ١٩٢٠(١).

وهكذا كانت حياة فريد سلسلة من التضحيات في سبيل مصر فقد احتمل الفقر وهو ابن الأثرياء ، وقضى زهرة حياته في سبيل مصر ، وضحى بمستقبله من اجلها ، ولم يتحول عن مبادئه بالرغم من التهديد والوعيد ، وكانت آراؤه توضح بعد نظره السياسي وفكره الناضج في النواحي الاقتصادية والاجتماعية فقد ابتكر أساليب جديدة في الكفاح لم تكن موجودة أيام مصطفى كامل فمد فروع الحزب في الأقاليم حتى تزداد

---

(١) محمد علي علوبة : ذكريات اجتماعية وسياسية مخطوط ص ٨٨.

ته في انحاء البلاد ، وطرح فكارا سياسية واجتماعية جديد. فنادى بالعدل
تماعي والاهتمام بأحوال العمال والفلاحين ، وحاول الربط بين حركة المثقفين
بقة العاملة في مواجهة الاحتلال ، وعمل على إنشاء مدارس الشعب الليلة لتعليم
ل بالمجان ، ولم يترك منبرا عاليا إلا وارتقاه ولا هيئة داعية لنصرة الشعوب
م إلا وتعاون معها.

وكان فريد أول من ربط الحركة الوطنية في مصر بحركة السلام العالمي
بر أن الجلاء عن مصر خدمة للسلام العالمي كما ربط استقلال مصر بقضية
تراكية الدولية بعد أن أرسل لينين رئيس الحكومة الروسية تلغرافا إلى دول العالم
ب فيه تحرير مصر والهند.

يضاف إلى ذلك تنظيمه للعمل الوطني بين الطلبة المصريين في أوربا ومع ذلك
عماء بشر وكل زعيم عرضة لأن يصيب وأن يخطئ في آرائه وقراراته وفريد
يفتقر في زعامته إلى المرونة السياسية فقد نظر إلى الخديو بمنظار أسود في كل
ور ، ولم يستطع أن يستثمر الجوانب المفيدة منه للحركة الوطنية كما فعل سلفه
طفى كامل كما أنه لم يستطع وأد الخلافات التي نشبت داخل الحزب بل كان تشدده
بعض المواقف يزيد من حدتها لدرجة أن استقال من اللجنة الإدارية بعد توليه
ناسة بعض موسسي الحزب مثل أحمد فائق ومحمود أنيس وعمر سلطان وويصا
سف يضاف إلى ذلك أن خروجه من مصر ، ونقل مركز الكفاح إلى أوربا كان خطأ
ما أدى إلى عزل الحركة الوطنية عن جماهيرها كما أدى إلى انحسار دور الحزب
طني في قيادة الأمة.

وعلى كل حال فإن ذلك لم يقلل من تضحيات فريد من أجل مصر ، فهو الذي
حى بكل ما هو عزيز لدى الإنسان ، فجعل حياته فداء لوطنه ، وقضى عمره يزكي
ح الوطنية في البلاد ، وينفخ في رمادها حتى تأججت نيران ثورة ١٩١٩.

٤-الزعامة الوطنية بين مصطفى كامل و محمد فريد

هذان الزعيمان كل منهما جاء من نبع وكان يمثل طبقة معينة تختلف كل منهما عن الأخرى اختلافا بينا : مصطفى كامل مصري صميم أجداده من الفلاحين وأبوه نشأ في بلدة كتامة الغاب من أعمال مركز طنطا ، وعمل موظفا صغيرا في خدمة الحكومة المصرية وربما نجد بين أفراد أسرته من يحملون اسم حفيظة ، وست الدار ، وشلبي ، ونفيسة ، وحسنين ، ومحمدين، ونعناعة ، وخضرة.

أما فريد ابن الذوات فقد نشأ في بيت عز وجاه وسلطان فجده الأعلى عثمان أفندي قدم إلى مصر مع الفتح العثماني لها ، وتولى أرفع المناصب بها وكان أبوه ناظرا للدائرة السنية ، وكان من بين أفراد أسرته من يعرف التركية ويتحدث بها بطلاقة.

ورغم هذا التباين الطبقي بين هذين الزعيمين ، ورغم أن نشأة فريد العائلية كانت تؤهله للعيش منعما فإنه ترك انتماءه الطبقي ، واقتحم ميدان الجهاد ، وتحمل مشاقه ، واتصل بمصطفى كامل وتوثقت الصداقة بينهما منذ عام ١٨٩٥ حينما التقيا بباريس ونسقا معا خطط الكفاح من أجل إجلاء المحتلين عن مصر.

والشيء المثير للتساؤل والدهشة هو أن فريد الأرستقراطي النشأة والذي كان يمكنه أن يأمر فيطاع انضوى تحت زعامة مصطفى كامل الأصغر منه سنا ، والأقل طبقة زعم أن المجتمع في ذلك الوقت كان يفضل دائما الأكبر سنا باعتباره أكثر خبر ودراية.

والواقع أن فريد وجد في مصطفى كامل الإخلاص للقضية الوطنية ، ذلا الإخلاص الذي كان ينشده ويبحث عنه بين زملائه فلم يجده إلا نادرا ومن هنا التقيا م في الكفاح دون النظر الى الزعامة أو المكانة.

وقبل أن نتطرق إلى موضوع زعامة مصطفى كامل وفريد للحركة الوط المصرية تطرح عدة أسئلة علينا نفسها : هل طبيعة المناخ السياسي والاجتماعي ا مصر بعد الاحتلال هو الذي أتاح لزعامة كل من مصطفى كامل وفريد الانبث والظهور ؟ وهل ترتبط الزعامة دائما بالمواقف والأزمات التي يتعرض لها الوطن

هل التغيرات التي يحدثها الزعيم تستمد مقوماتها منه أم من البيئة التي يعيش فيها ومن ظروف الأجيال التي انحدر منها ؟

الواقع أن ظروف مصر بعد انكسار العرابيين في التل الكبير واستيلاء الإنجليز على البلاد ، والجو النفسي الكئيب الذي عاش فيه أبناء الوطن هو الذي هيأ المناخ لوجود زعامات من الطبقة المثقفة أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد . فالهزيمة العسكرية غيرت من واقع المجتمع المصري الذي كان على شفا الانهيار ، ومن أجل ذلك انتقلت القيادة الوطنية من طبقة العسكريين أمثال عرابي وزملائه إلى طبقة أخرى من طبقات المجتمع المصري كانت قادرة على امتصاص روح الهزيمة من نفوس أبناء الشعب ، وإنارة طريق الكفاح أمامه وهي طبقة المثقفين فالموقف الذي طرأ على البلاد فرض زعامة من نوع معين زعامة تتسق مع ملابسات وظروف المجتمع المصري الذي كان في حاجة إلى من يرسم له طريق الخلاص ويستطيع التعبير الحقيقي عن آرائه ، وهنا كان المفتاح الرئيسي لقيام زعامة مصطفى كامل ومحمد فريد.

فمصطفى كامل كان يمثل جيل ما بعد الثورة العرابية ، وهو الجيل الذي حاول أن يتجاوز كل مظاهر الإحباط والكآبة التي حدثت نتيجة للهزيمة ، هذا الجيل كان يتميز بالحس الثقافي والفكري والقدرة على استيعاب خبرات الماضي وطرح رؤية جديدة تحدد مسار الأمة المهيضة الجناح ، وهكذا تزعم الحركة الوطنية المصرية لأول مرة رجال ينتمون إلى الصفوة العلمانية المثقفة التي تمزج بين الفكر السلفي والفكر الليبرالي ، وهذا ما يختلف عن الزعامات المصرية السابقة كعمر مكرم باعتباره من الصفوة الدينية المستنيرة أو كأحمد عرابي بصفته أحد زعماء العسكريين.

وهكذا فإن دور المجتمع في تكوين الزعيم يبدو واضحا عند نظرتنا إلى التطورات الطارئة التي لحقت به ، وجعلته في حاجة إلى زعامة معينة تلعب دورها وهي متأثرة بالظروف التي يمر بها هذا المجتمع يضاف إلى ذلك أن ظروف المجتمع هي التي تحدد الطريق للزعيم حتى يصبح عنصرا مؤثرا فيه تارة ومتأثرا به تارة أخرى فالزعيم الحق هو الذي يعي بثاقب نظره ما يعانيه مجتمعه ، ويعرف المتطلبات

التي ترفع عن كاهله هذه المعاناة ويعمل من أجل تحقيقها أو يحاول إيجاد الحلول الملائمة لها ، وبعبارة أخرى فإن الإنسان الذي تتاح له فرصة الزعامة لم يولد زعيما بل أن الظروف والمتغيرات التي يتعرض لها المجتمع هي التي تؤهله لتولي الزعامة وهي التي تتيح الفرصة لإبراز قدراته إذ كانت لدية الاستعدادات اللازمة لذلك . ومن هنا يكون الزعيم هو الشخصية التي يتجه أو يتطلع إليها الوطن لحاجته الماسة لها أو لشعوره بأن هذه الشخصية هى التي تحقق أمانيه ، وقد وجد الشعب المصري في مصطفى كامل الزعيم الشاب الذي يستطيع انتشاله من وهدة الهزيمة ومن براثن الذل والهوان الذي تعرض له ، ونظرا لأن النفوس كانت متعطشة إلى نغمة جديدة تجدد فيها الأمل بحياة حرة كريمة بعد أن تسرب اليأس إليها . لذلك اعتبر الشعب مصطفى كامل رسول الوطنية الذي جاء لتثبيت العزائم بعد أن خارت قواها أو قربت من ذلك ، ومن أجل هذا أقبل عليه بحماس وآزره في كل مواقفه.وتعلق به.

وقد يدفعنا هذا إلى التساؤل هل كان مصطفى كامل الشخص الوحيد الذي كانت له القدرة على تحمل الرسالة بعد انكسار العرابيين ؟ الواقع أنه كان يوجد بين المصريين من يستطيع حمل هذه الرسالة ومن هم أكثر نضجا من مصطفى كامل وتفكيره ، ولكن ما هي متطلبات المجتمع في الرجل الذي يستطيع أن يتحمل عبء الزعامة في ذلك الوقت ؟

إن متطلبات المجتمع تنحصر في شخص لديه الإقدام والشجاعة وحمية الشباب ، شخص يستطيع إزالة آثار اليأس الكريهة التي عششت على المجتمع باتباع أسلوب جديد يشمل حماس الناس ويخاطب شعورهم وأحاسيسهم ، وكانت هذه الصفات تنطبق على مصطفى كامل.

فمصطفى كامل يختلف عن غيره في أنه كان لديه الإقدام ، كما كانت لديه حمية الشباب الملتهبة يضاف إلى ذلك أنه كان لديه أسلوب جديد في الخطابة ، وهو الأسلوب الوجداني الذي يخاطب عواطف الناس وقلوبهم قبل أن يخاطب عقولهم هذا الأسلوب

ذي يعتمد على الجمل الضخمة التي تثير شعور الجماهير دون رؤية للوصول إلى غاية التي تنشدها وتتمناها(١).

هذا هو الذي فرض مصطفى كامل كزعيم دون غيره لأن الظروف التي كانت ر بها مصر كانت تتطلب مواصفات زعامته .

وهنا يمكننا أن نتساءل مرة أخرى هل الزعيم المؤسس لأي حركة يكون أقدر من يأتي بعده في زعامة هذه الحركة أو العكس.

هناك رأي يرى أن الزعيم المؤسس للحركة يكون أكثر دراية وتجربة ومعرفة حركته ممن يأتي بعده لأنه هو الذي وضع نواة حركته وعمل على إبرازها ، وهناك أي آخر يرى أن الزعيم الذي يخلف غيره في زعامة الحركة يكون أكثر معرفة خطاء سلفه وأكثر دراية بها ولذلك يستطيع تصحيح مسيرة الحركة.

وعلى الرغم من وجاهة كل من الرأيين فالواضح أن الظروف السياسية الاجتماعية المتغيرة التي تعرض لها الوطن ثم ظروف تكوين الزعيم هي التي تؤثر ي حركة الزعامة أكثر من أي شيء آخر ، وعلى سبيل المثال فظروف مصطفى كامل تختلف عن ظروف زعامة محمد فريد ، فمصطفى استفاد من نزاع الخديو مع كرومر حاول عن طريق ذلك تحقيق بعض الأهداف الوطنية، كما أنه اعتمد على استغلال تناقض بين إنجلترا وفرنسا من اجل إجلاء الاحتلال أما فريد فقد جاءت زعامته بعد ، تغيرت كل هذه الظروف فقد تولى الزعامة مع سياسة الوفاق التي اتبعها جورست ع الخديو ، والتي أدت إلى ضرب الحركة الوطنية من كلا الطرفين فكان فريد هدفا ضرب مر- جة لم يتعرض لها مصطفى كامل كما أن زعامة فريد جاءت بعد وفاق جلترا وفرنسا لذلك كان من الصعب استغلال التناقض القائم بينهما كما فعل مصطفى مل في أول الأمر ، ومن هنا اختلفت سياسة محمد فريد عن سياسة سلفه يضاف إلى ك أن فريدا الزعيم الثاني للحزب الوطني بدأ من حيث انتهى مصطفى كامل ، لمعروف أن مصطفى كامل لم يضع منهاجا واضحا في طريقة كفاحه السياسي فقد

---

١) محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية ص ٥٦.

اعتمد على تناقض مصالح فرنسا وبعض الدول الأوربية مع إنجلترا من أجل تحقيق الجلاء وأثبت الاتفاق الودي انهيار هذا الأساس كما اعتمد مصطفى كامل على الدولة العثمانية والخديو واتضح أن لكل منهما مصالحه الخاصة التي يفضلها عما عداه وانتهى به الأمر إلى الاعتماد على الرأي العام أما فريد فقد اعتمد على الشعب المصري منذ أن تولى رئاسة الحزب ولم يقتصر اعتماده على المثقفين كما فعل مصطفى كامل بل جذب إليه الكوادر العمالية والفلاحية ثم حاول الربط بينها وبين حركة المثقفين في مواجهة الاحتلال ، ومد فروع الحزب إلى الأقاليم لتزداد شعبيته كما قام بتنظيم الطلبة المصريين في أوربا.

ومن هنا لا نستطيع أن نقول أن الزعيم الأول أفضل ممن يأتي بعده أو العكس بل نقول أن ظروف المجتمع هي التي تحدد مسار الزعامة ولما كان لكل زعامة من معلم أو مثل أعلى يحتذى به فهل نبتت زعامة مصطفى كامل وفريد من فراغ أم أن كل منهما تلقى دروس الوطنية من أحد زعماء الجيل الذي سبقه وعاصر تجارب النجاح والفشل التي تعرض لها الوطن حتى يستطيعا استيعاب خبرات الماضي.

الواقع أن مصطفى كامل قد تأثر بعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية واستطاع بصحبة هذا الثائر التعرف على حقيقة التيار السياسي في مصر ، وكيف شوه رجال الاحتلال مبادئ العرابيين وخططهم كما تعلم منه القواعد التي إذا اتبعها يكون وطنياً ناجحاً(١) يضاف إلى ذلك أن مصطفى كامل كانت صلته وثيقة بعلي باشا مبارك .

أما فريد فقد كان لمعايشته وهو في سن الرابعة عشر – ولد عام ١٨٦٨ النكبة التي حلت بالبلاد أثر هزيمة التل الكبير ، وما سمعه عن المآسي التي حدثت لمصر من جراء الاحتلال أكبر أثر في تكوين نزعته الوطنية يضاف إلى ذلك حضر مجالس لطيف باشا سليم، وتعلم منه المبادئ الوطنية ، وورث عنها معارضة التعامل مع الخديو .

---

(١) عبد المنعم الجميعي عبد الله النديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية ص ١٩٩ – ٢٠٠

وعلى كل حال فهناك عدة سمات تميز الزعامة ، ولكل جيل تختلف عن غيرها من الأجيال الأخرى فسنقصر حديثنا على سمات زعامة مصطفى كامل وفريد.

الواقع أن الإيمان المطلق بالقضية الوطنية ، والثبات على المبدأ والشجاعة ، وقوة الإرادة ووعيها ، وسعة الأفق والقدرة على التأثير في الجماهير بالخطابة والصحافة ، واحترام مشاعر الناس ومعتقداتهم كانت من أهم سمات الزعامة في ذلك الوقت ، ومع ذلك فإن مصطفى وفريد لم يكونا متفقين في كل هذه السمات أو غيرها بل كان هناك أوجه اتفاق بينهما كما كان هناك أيضا أوجه اختلاف وفيما يلي نعرض لأوجه الاتفاق.

إذا كانت كثرة القراءة وسعة المعلومات والإلمام بدقائق المسألة التي يتبناها الفرد أو يدافع عنها هي إحدى سمات الزعيم الناجح فمما لا شك فيه أن مصطفى وفريد قد تميز بهذه الصفة ، وكان لقراءة كل منهما للتاريخ بل والتأليف فيه أكبر الأثر في إكسابهم خبرات الآخرين وتعميق كوامن الوطنية في نفسيهما فقد قرأ مصطفى كامل تاريخ الأمم الأوربية ودرس تاريخ القضية المصرية ، وله مؤلفات تاريخية تشهد بقدرته على استيعاب التاريخ منها كتاباه " المسألة الشرقية " و " الشمس المشرقة ".

أما فريد فله إلى جانب مذكراته المخطوطة عدة كتب تدل على اهتمامه بالتاريخ منها كتاب " البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية " ومنها كتاب " تاريخ الدولة العثمانية " وكتاب آخر عن " تاريخ الرومان " ومن يتفحص هذه الكتب يتضح له مدى النضج الفكري وسعة الاطلاع والإلمام بالمسائل السياسية القومية والدولية لكل من مصطفى وفريد وإذا كانت زعامة تلك الفترة تقتضي عمل الزعيم بالصحافة حتى يكاد يبدو لمن يقوم بالتأريخ لزعامة أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي أن الزعامة والصحافة شيء واحد فقد كان زعماء تلك الفترة يقودون بأفكارهم ومقالاتهم الصحفية كافة أبناء الشعب ، فقد وعي كل من مصطفى وفريد ذلك فعبرا في كتاباتهم بالصحف عن أفكارهما التي قادت الجماهير وأشعلت الكراهية للمحتلين .

وقد عمل مصطفى كامل منذ صباه في الكتابة الصحفية فأسس مجلة المدرسة ونشرت له الأهرام والمؤيد بعض المقالات ثم أسس بعد ذلك اللواء التي كانت قلعة من أكبر قلاع الوطنية ، ولم يكتف مصطفى كامل بذلك بل أسس صحيفتين إحداهما بالإنجليزية والأخرى بالفرنسية حتى يتضح للرأي العام العالمي حقيقة المسألة المصرية.

أما فريد فكانت له الكثير من المقالات المستفيضة في الصحف فقد رأس الصحف منذ تخرجه من مدرسة الحقوق فكتب عدة مقالات في مجلة الآداب والموسوعات والمؤيد ثم فى اللواء وصحف الحزب الوطني الأخرى مثل العلم والشعب وكانت هذه المقالات تجمع بين النضج الفكري وغزارة المادة.

وإذا كانت سمات الزعامة تتركز في الإيمان المطلق بالقضية المصرية فان كل من مصطفى كامل وفريد قد آمن بالقضية المصرية إيمانا مطلقا بل وضحى في سبيلها بكل شيء وبذل النفس والنفيس من أجلها ورسم كل منهما لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال وهي مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع وظل كل منهما ثابتا في جهاده رغم جنوح معظم رجالات مصر إلى الولاء للاحتلال واكتساب رضاه والأمثلة على ذلك كثيرة منها أن فاشودة كانت بمثابة الضربة القوية لحركة مصطفى كامل كما كانت أحد عوامل اليأس في نفوس معظم الوطنيين ، ومع ذلك فإن مصطفى كامل لم ييأس ، ولم ينخفض صوته ولم تفتر عزيمته بل كان رده هو مضاعفة الجهد والكفاح كلما زادت المصاعب والعقبات.

وعندما وقعت إنجلترا الاتفاق الودي في ٨ أبريل ١٩٠٤ لم يتزعزع يقين مصطفى كامل في الجهاد وبذلك برهن على ثبات وطنيته ، وأن الأحداث لا تزيدها صلابة.

ولا يعني هذا أن مصطفى كامل لم ييأس طوال أيام كفاحه الوطني فالواقع صاحب دعوة لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس اعترته عوامل اليأس في بعض الأحيان حتى وصل به الأمر في بداية كفاحه الوطني إلى التفكير في الانتحار ويتضح

ذلك من الخطاب الذي أرسله من باريس إلى صديقه ... ليم والخاص يشكو ... ضيق ذات يده بعد أن كف الخديو عن إرسال نقود له فيقول مخاطبا صديقه " أليس في استطاعة والدك والهلباوي ومحمد سالم أن يرسلوا لي سنويا أربعمائة جنيه ما داموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرون جهودي الوطنية ، وإذا كانوا غير قادرين على مساندتي فإني سأعود إلى مصر يائسا فاقد الأمل ليس من أجل الجلاء فحسب بل من أجل مستقبل الأمة المصرية ، وتأكد يا صديقي العزيز أني لم أمكث في مصر بعد عودتي دون أن أرى القبر (أكيدا) سوف أنتحر ولا أعيش وسط أمة جاحدة(١).

الواقع أن هذا الخطاب وضعنا في حيرة وطرح عدة أسئلة تتطلب الإجابة : هل حدة المزاج يمكن أن تخرج الإنسان عن طوقه إذا تعرض لبعض الضغوط لدرجة أن يفكر في التخلي عن مبادئه التي آمن بها ونادى الناس بالتمسك بها ، وكلنا يعرف أن وطنية مصطفى كامل كانت ممتزجة بحدة المزاج.

وهل كان مصطفى كامل مطالب بأن يبعث في أمته الحياة ، وينبذ فيها فكرة اليأس بعد أن أوشكت على الغرق فيه رغم أن هذه الفكرة غير متمكنة منه ؟

الواقع أن اليأس الذي انتاب مصطفى كامل كما يتضح من خطابه لم يكن ثابت الجذور في نفسه بل كان يأسا طارئا زال بزوال المؤثرات التي أدت إليه ، فعندما تعرض مصطفى كامل للضغوط المالية الشديدة خرج عن طوقه وكان ذلك في أوائل عهده بالزعامة ، وبمعنى آخر في ١٦ أكتوبر ١٨٩٥ أي في وقت لم تكن حركته قد وصلت إلى الانتعاش الذي وصلت إليه بعد ذلك أو بعد أن صقلته الزعامة وحنكته التجارب ، وقد مرت الصعاب فقد أصبح أصلب عودا وواجه العقبات بثبات.

... بالرغم مما تعرضت له الحركة الوطنية من ضربات متلاحقة سواء من الخديو أو من الاحتلال نتيجة سياسة الوفاق فقد ظل متمسكا بمبادئه متحملا للمصاعب دون كلل ، وكلما زادت الأمور صعوبة كلما ضاعف من جهاده.

---

(١) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية من مصطفى كامل إلى فؤاد سليم ص ٥٨.

ومن كلماته المأثورة في هذا الصدد قوله " لا ينتظر أحد منا أن نحيد عن مبادئنا ما دام فينا عرق ينبض أو تجري في أجسامنا نقطة دم " لذلك فإن فريد لم ينثن عن مقاومة الاحتلال أو كل من يلوذ به أو يحالفه حتى لو كان ذلك أكبر رأس في البلد وقتذاك وهو الخديو فرغم آلام السجن رفض فريد مساومة الخديو له بأن يخفف في لهجته في نظير الوعد بالإفراج عنه ، وآثر السجن على التساهل في مبادئه ورغم انفضاض بعض أنصار فريد عنه وانحيازهم إلى جانب الخديو فإن الضعف أو اليأس لم يعرف إلى قلبه سبيلا فقد أعلن أن سياسته لم تتغير حتى لو ظل وحده" وقدم حياته طائعا مختارا من أجل تحرير مبادئه.

وبما أن الزعيم لا بد أن يكون واضح الأهداف محدد المبادئ فإن مصطفى كامل جعل لنفسه هدفا واحدا هو الجلاء ، وعدوا واحدا هو الاحتلال أما فريد فإنه لم يختلف مع مصطفى كامل في خطته هذه وإن كان قد أبرز معها دعوته للمطالبة بالدستور وإعداد العرائض لإنشاء مجلس نيابي(١).

وإذا كان الزعيم الناجح هو الذي يبتعد عن إثارة أحاسيس الناس ولا يحاول هز معتقداتهم أو عاداتهم بل يحاول استمالة العواطف الموجودة في نفوسهم فإن كلا من مصطفى كامل وفريد قد عمل على تحقيق هذه الغاية فمصطفى كامل ربط بين دعوته لحب الوطن وبين معايير مجتمعه فتمسك بالقديم ، وكان متحفظا على المبادئ الأوربية في تربية البنات ودافع عن سياسة الحجاب واعتبرها عصمة للنساء ثم عارض فكرة تحرير المرأة موضحا " أن قواعد الشرع والأدب تقضي بفرض الحجاب على النساء فليس لهن أن يستخدمن بالمصالح كالرجال وإنما يكفي لأنهن يدبرن شئون المنزل ويهذبن أولادهن " يضاف إلى ذلك أن مصطفى كامل كان خصما لدودا لكتاب تحرير المرأة الذي أصدره قاسم أمين عام ١٨٩٩ كما كان خصما لدودا لصاحبه فحمل عليه حملات ضارية في اللواء ورفض فكرة سفور المرأة.

---

(١) دار الوثائق : تقارير الأمن العام – الداخلية ١٩٠٨.

ولقد أثيرت قضية زواج الشيخ علي يوسف من ابنة الشيخ السادات رغم إرادة والدها وقف مصطفى كامل ضد صاحب المؤيد مهاجما إياه، ومؤيدا للتقاليد الموروثة ومتمسكا بها ، وكانت فرحته شديدة عندما طلبت المحكمة إبطال هذا الزواج ، ويبدو ذلك واضحا في رسالته إلى جوليت آدم بتاريخ ٤ أكتوبر ١٩٠٤ حيث قال " أزف إليك نبأ عظيما .. أن محكمة الاستئناف أيدت حكم أول درجة القاضي بإبطال زواج ذلك الصحافي المسكين الذي حدثتك عنه، وعلى الباغي تدور الدوائر .. ولعظيم فرحي وعلمي أن ما يسرني يشرح فؤادك أسرعت إلى مكاتبتك(١) ".

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل انتقد مصطفى كامل الخديو لموقفه المؤيد للشيخ علي يوسف في هذه القضية مما أدى إلى القطيعة بينهما وقد أيد فريد مصطفى كامل في كل هذه المواقف وسار على منوالها طوال زعامته للحزب.

وقد يستغرب البعض هذه المواقف من كل من مصطفى كامل ومحمد فريد خصوصا وان ثقافتهما فرنسية وأنهما تلقيا العلم بعض الوقت في أوربا وكانا من المعجبين بالمدنية والحضارة الأوربية.

يرجع الدكتور هيكل ذلك إلى أن كل من مصطفى وفريد حاول التقرب إلى الشعب فيما هو عزيز لديه من عادات وأوهام لاستغلاله في الغايات السياسية لدرجة أن مصطفى كامل فضل أن يخسر الخديو على أن يخسر الرأي العام نضيف إلى ذلك أن قوة الاتجاه الإسلامي لدى كل منهما جعلهما يناديا بالا تقلد مصر أوربا تقليدا أعمى بل يجب أن تظل متمسكة بمبادئ الإسلام هذا بالإضافة إلى أن فكرة الإصلاح الاجتماعي لدى كل منهما كانت تجئ في المرتبة الثانية بعد تحقيق الجلاء.

وإذا كانت التضحية بالنفس والنفيس وإيثار الذات في سبيل الوطن إحدى سمات الزعيم الناجح فإن كلا من مصطفى وفريد قد تميز بهذه الصفة ولم ينظر أي منهما إلى اتخاذ العمل السياسي وسيلة لتحقيق النفوذ والجاه والأدلة على ذلك متعددة نذكر منها :

---

(١) عبي فهمي كامل . رسائل مصر فرنسية ص ١٥٥ - ١٥٦.

بالنسبة لمصطفى كامل فرغم انه كان قيد اسمه في جدول المحامين وقررت لجنة انتخاب المحامين قبوله فإنه لم يحترف المحاماة بل تفرغ لقضية واحدة هي قضية مصر ، ورغم انه كان ضعيف الصحة وفي حاجة إلى الراحة فإنه لم يعط لبدنه حقه من الراحة بل واصل الجهاد في سبيل مصر ، وأخذ على عاتقه مهمة إيقاظ الشعور الوطني ، وبث الدعاية للقضية المصرية في الخارج فواصل حملاته ضد الاحتلال ، ولم تغريه باريس بمفاتنها وجمالها بل كان يقطع شوارعها وحواريها ليلحق سياسيا قبل أن يترك مكتبه أو خطيبا قبل أن يقف على منصة الخطابة ليشكو إليه أحوال مصر في ظل الاحتلال ورغم انه حورب في شخص أقرب الناس إليه وهو أخوه ليعدل عن موقفه فكان رد مصطفى أنه مهما حورب في شخصه أو شخص أقرب الناس إليه فإن ذلك لم يحل دون جهاده ، ولما طلب السير كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية من مصطفى كامل تكوين وزارة بمعرفته رفض قائلا " إن وطنيتي تفرض علي رفض كل مركز في الحكومة طالما ظل الاحتلال جاثما على صدر مصر"(١)

يضاف إلى ذلك أنه عندما علم مصطفى كامل برغبة فريد في تأليف لجنة بقصد عمل اكتتاب عام لدعوته إلى وليمة وتقديم هدية له بعد جهوده التي بذلها في الخارج من أجل مصر بعد أحداث دنشواي اقترح مصطفى كامل تحويل هذه الهدية لغرض آخر قائلا أن " خير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية أن تقوم اللجنة التي شكلت بدعوة الأمة كلها، وطرق باب كل مصري لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء ".

هذا عن بعض تضحيات مصطفى كامل من أجل مصر . أما عن تضحيات فريد فهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال تضحيته بمنصبه في النيابة حيث استقال من وظيفته بعد موقفه الوطني من قضية التلغراف ثم تضحيته بعمله في المحاماة لكي يتفرغ للجهاد ، وتضحيته بأمواله لمساندة الحركة الوطنية بأن باع كل ما يملكه من أرض زراعية بعد أن تولى رئاسة الحزب الوطني.

---

(١) احمد رشاد : مصطفى كامل حياته وكفاحه ص ٣٢٣.

وكما رفض مصطفى كامل الاشتراك في الوزارة رفض أيضا فريد ذلك عندما عرض عليه محمد سعيد باشا الاشتراك في وزارته قائلا " كيف تطلب مني أن اشترك في حكم البلاد في ظل الاحتلال ، وأنا أجاهد الاحتلال ؟ وكيف يتفق النقيضان ".

وقد تكررت هذه المحاولة مع فريد بعد ذلك فعقب مؤتمر بروكسل في أكتوبر ١٩١٠ قابل فريد في باريس مبعوثا من قبل الحكومة الإنجليزية يعرض عليه إحدى الوزارات ومساعدته ماليا بعد أن تحرج مركزه المالي فكان رد فريد الرفض قائلا " إن ضياع ثروتي لا يؤثر على مبادئي ، وإني أرفض أي مركز في الحكومة ما دام الإنجليز في مصر ".

ولما عرضت الحكومة العثمانية على فريد بعض المناصب ومنها عميد كلية الحقوق بالأستانة اعتذر حتى يحتفظ باستقلاله في جهاده بقوله " إنني لم أخرج من بلادي للبحث عن وظيفة إنما خرجت لخدمتها ، وسأبقى كذلك حتى أموت ".

يضاف إلى ذلك أن فريدا ضحى براحته وحريته ، فاستهدف للسجن والنفي ، وكان يتلقى المحن والشدائد بكل رضا فكان رجل مبادئ لم يتغير مهما قاسى في سبيل المحافظة على مبادئه فقد ضحى بثروته من أجل الحركة الوطنية حتى أصبح المال قليلا معه فلم يجد العناية الطبية الكافية عند إصابته بمرض الاستسقاء لعدم توافر المال اللازم لعلاجه كما ركب القطار لأول مرة في حياته في الدرجة الثالثة وهو بأوربا للدفاع عن حقوق مصر رغم برد الشتاء وذلك لقلة النقود معه(١) ووصل فريد إلى أقصى حالات الضنك بسبب قيام الحرب الأولى ، وانقطاع المورد المالي الذي كان يصله من أسرته لدرجة لأنه لم يجد قوت يومه إلا بصعوبة ، كما أنه لم يملك ثمن الدواء ، ومع ذلك لم يعرف فريد في الوطنية لينا أو هوادة ، ولم يضعف أمام الوعيد ولم يعبأ بأي وعود.

وبما أن الزعيم الناجح هو الذي يعي متطلبات مجتمعه ، ويحاول النهوض بشعبه فإن كلا من مصطفى وفريد اهتم بتعليم الشعب المصري ، واستنهاض همته

---

(١) مذكرات محمد فريد : ملف رقم (١) ص ٢١.

وتذكيره بعزته القومية وكرامته الوطنية فبعد أن رأى مصطفى كامل عقم سياسة الاقتصار على الدعوة في أوربا وحدها والاعتماد على الدول لإجلاء إنجلترا عن مصر أحس بضرورة الاهتمام بتعليم الناس وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم خصوصاً وأن الشباب المتعلم هو أساس تقدم الوطن ، وأن سياسة الاحتلال التعليمية تحول بين تربية الناشئين والشباب تربية وطنية صحيحة فكان أساس مناهجها التربية المفعمة بالخضوع والمذلة ومن أجل ذلك ضاعف مصطفى كامل من جهوده لتنشيط حركة التعليم في البلاد فطالب بإنشاء المدارس الأهلية بعد أن أغلقت سلطات الاحتلال بعض المدارس الحكومية وألغت مجانية التعليم كما طالب بأن يشمل التعليم أبناء الأسر الفقيرة وألا يقتصر على طبقة الأغنياء فقط.

ونتيجة لجهود مصطفى كامل في هذا المجال افتتحت مدرسة ابتدائية بالقاهرة حملت اسمه وذلك في عام ١٨٩٩ ثم كون نادي المدارس العليا الذي كان أول تنظيم للطلاب وخريجي المدارس.

وقد سار فريد على منوال مصطفى كامل في الدعوة لنشر التعليم فقد طالب بنشر التعليم الابتدائي بين كافة طبقات الشعب فقيره وغنيه وان يكون هذا التعليم إلزاميا ومجانيا لكل مصري ومصرية كما تبنى فريد مع نادي المدارس العليا فكرة إنشاء مدارس ليلية لتعليم العمال ومن يرغب من الفقراء مجانا ، وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الشعب ، وعهد بالتدريس فيها إلى رجال الحزب وأنصاره.

هذا عن دور مصطفى كامل وفريد نحو التعليم العام أما عن دورهما نحو التعليم الجامعي فالمعروف أن مصطفى كامل نادى بإنشاء جامعة فأموال الأمة تتيح للمصريين إبراز مواهبهم ورفع شأنهم كما سار فريد على منوال سلفه وزاد على ذلك أنه كان ضمن الأعضاء المؤسسين للجامعة الأهلية وعضوا بمجلس إدارتها وسكرتير للجنة إنشاء الجامعة وضمن المساهمين من أجل إنشائها فقد اكتتب بمائتي جنيه ، وبمثل هذا المبلغ سنويا.

هذا عن أوجه الاتفاق بين مصطفى كامل وفريد ، وقبل أن انتقل إلى أوجه الاختلاف بينهما ينبغي أن نذكر انه إذا كانت إحدى سمات الزعيم السياسي مساومة الآخرين ومراوغتهم من أجل الحصول على مطالبه ومطالب شعبه فإن كلا من مصطفى وفريد لم يستعمل هذا الأسلوب في كفاحه بل كانا واضحين في مطالبهما دون لف أو دوران.

أما بالنسبة لأوجه الاختلاف بين الزعيمين فنجد أنه بالرغم من أن مصطفى وفريد كانا متفقين في أساسيات الكفاح الوطني فإن الظروف السياسية التي لازمتهما وبوجه خاص أثناء زعامة كل منهما للحزب الوطني حتمت على كل منهما اتباع سياسة مخالفة لسياسة الآخر فمع أن زعامة مصطفى كامل للحركة الوطنية كانت تمثل المرونة السياسية فإن زعامة محمد فريد كانت تمثل الصلابة العقائدية فمصطفى كامل كخطيب استطاع تحريك الجماهير وإثارتها دون أن يقدم لها برنامجا فكريا واضحا ، وقد أتاح له رصيده السياسي استخدام الأسلوب المرن من أجل الوصول إلى هدفه فلجأ إلى الكتابة والخطابة في التشهير بالاحتلال واستطاع أن يخاطب عدوه القوى باللغة الهادئة التي تستند إلى العقل والمنطق ولم يلجأ إلى الأساليب الثورية في حركته.

أما فريد فقد دفعته ظروف سياسة الوفاق وقلة رصيده السياسي بالإضافة إلى الخلافات التي نشبت داخل الحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل إلى التشدد في مواقفه واللجوء إلى تحويل المجتمع إلى قوة ضاربة فانتقل من الخطابة مع المثقفين وطلاب المدارس إلى تنظيم الحزب وتطويره ومد فروعه في الأقاليم كما لجأ إلى القوى الاجتماعية الأخرى القادرة على مقاومة الاحتلال بالعنف مثل العمال والفلاحين يضاف إلى ذلك أن فريدا دعا إلى المظاهرات الشعبية المنظمة للمطالبة بحقوق مصر في الدستور فكان يجتمع في حديقة الجزيرة عشرات الآلاف ثم يسيرون إلى قلب القاهرة هاتفين بمطالبهم مشتبكين بالبرليس مضحين بالعشرات. (١)

---

(١) أحمد بهاء الدين : أيام لها تاريخ ص ٧٣.

فقد راى فريد أن الزعيم الناجح هو الذي يعتمد على طبقات شعبه في حركة الكفاح وهنا يبرز لنا تناقضا غريبا وهو أنه بالرغم من أن مصطفى كامل ينتمي إلى طبقة الفلاحين وصغار الموظفين وفريد ينتمي إلى الطبقة الارستقراطية فإن موقف كل منهما من الفلاحين والعمال كان على عكس انتمائهما الطبقي فقد حصر مصطفى جهوده في أول الأمر على الطبقة المثقفة في المدن ، ولم يجذب إليه طبقة العمال والفلاحين ، ولم يكن لهم في مقالاته أو في برنامج حزبه شأن كبير ، كما أن دعوته للالتفاف حول الدولة العثمانية جعلت الفلاحين يبتعدون عنه بعض الوقت حتى وقعت أحداث دنشواي فانضم الفلاحون إليه وتغنوا بأعماله . أما فريد فقد فطن إلى ضرورة جذب العمال والفلاحين إليه منذ بدء زعامته فأصبح رجلا جماهيريا يتسم بطابع البساطة ، ويفضل العيش بين الجماهير ومشاكلها فبدأ بالربط بين حركة المثقفين وطبقة العمال والفلاحين حتى يتحول المجتمع المصري إلى قوة ضاربة في مواجهة الاحتلال.

وقد اهتم فريد بأحول العمال ، وطالب بوضع قوانين لحمايتهم وتحديد عدد ساعات العمل لهم ، كما اهتم بالنقابات والأندية العمالية لترقية أحوال هذه الطبقة والدفاع عن مصالحها ومنع استغلالها فأنشئت في عام ١٩٠٩ أول نقابة للعمال في مصر وهي نقابة عمال الصنائع اليدوية .

أما عن الفلاحين فقد طالب فريد بإنشاء نقابات زراعية لهم تحميهم من جشع المرابين ، وتعمل على ترقية أحوال الزراعة ، وتحسين أحوال الفلاح المصري الذي وصفه فريد بأنه أتعس فلاح في العالم.

وهكذا كان لاهتمام فريد بمشاكل العمال والفلاحين أكبر الأثر في زيادة رصيده الشعبي في الكفاح الوطني وهذا ما لم يتوفر لسلفه مصطفى كامل ومع أن فريدا كان أقرب في عثمانيته من ناحية الدم والصلة والقرابة من مصطفى كامل فإن فكره كان أكثر مصرية من مصطفى كامل الذي كان شديد الامتزاج بالعثمانية فمزج عقيدته الوطنية بعقيدته الدينية ويكفي للتدليل على ذلك أن فريدا أحدث تغيرا في مبادئ الحزب الوطني العشرة بعد وفاة مصطفى كامل لدحض الاتهامات التي نسبت للحزب بتغليب

ولائه التركي على ولائه المصري فعدل المبدأ الأول للحزب من " استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ وضمنته الفرمانات السلطانية ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد علي والضامن للاستقلال الداخلي للبلاد " ليصبح استقلال مصر مع سودانها استقلالا تاما غير مشوب بأية حماية أو وصاية أو سيادة أجنبية أو أي قيد يقيد هذا الاستقلال.

يضاف إلى ذلك أن فريد رفع شعار مصر للمصريين في أحرج ظروفه مع خصومه بعد خروجه من مصر فقد وضع على جاكتته شارة مرسوم عليها أبو الهول ومكتوب عليها مصر للمصريين مما أثار الأتراك وهددوه إما أن ينزع هذه الشارة من على صدره أو أن يغادر الأستانة فآثر فريد مغادرة العاصمة العثمانية على خلع شارته.

حقيقة أن مصطفى كامل كان له هدفه من التقرب الشديد للعثمانيين ، ولكنه أيضا كانت له مواقف فضل فيها المصلحة العثمانية على مصلحة مصر ويكفينا أن نذكر موقفه من مسألة طابة وإذا كانت ملكة الخطابة ، والقدرة في التأثير على الجماهير إحدى سمات الزعامة فإن مصطفى كامل كان خطيبا بارعا في الارتجال إذا خاطب الناس بعباراته البليغة وبيانه الواضح وحججه المدعمة بالمنطق والأسانيد لذلك كان قادرا على استمالة الجماهير وإقناعهم كما كانت كلماته تعبيرا حيا عما يجيش في صدور أبناء وطنه.

أما فريد فقد كان يفتقر إلى هذه الصفة من سمات الزعامة فإنه لم يكن خطيبا في بلاغة مصطفى كامل بل كان غالبا ما يتلو خطبه.

وتبدو ديمقراطية فريد واضحة في رفض اختياره رئيسا للحزب مدى الحياة كما حدث مع مصطفى كامل فطالب بتعديل لائحة الحزب التي تقضي بانتخاب الرئيس مدى الحياة . وأن يقتصر انتخابه على فترة محددة ولكن ذلك الموقف من فريد لم يستمر طويلا فبعد انتهاء فترة الثلاث سنوات الأولى لزعامة فريد للحزب الوطني عقدت الجمعية العمومية للحزب اجتماعا انتخبت فيه فريدا رئيسا للحزب مدى الحياة ،

ولم يعترض فريد على ذلك بعد أن اتضح له ضرورة استمرار الزعامة فيه باعتبار أن استمراريته فيها هي استمرار لمبادئ الحزب.

أما بالنسبة لعلاقة كل من مصطفى وفريد بالخديو فقد كان هناك اختلاف واضح بين كل منهما في علاقته به فقد اعتمد مصطفى كامل على الخديو في إمداده بالمصروفات الكبيرة التي يتطلبها العمل الوطني الذي تصدى له خصوصا وأن نشأته الاجتماعية المتوسطة لم تمكنه من توفير هذه المصروفات مما أوجد نوعا من العلاقة الخاصة بين الرجلين وجعل مصطفى كامل يرتبط بالخديو في بعض المواقف أحيانا ، ورغم ذلك فإن علاقة مصطفى كامل بالخديو لم تستمر على هذا المنوال طويلا خصوصا بعد أن رأى ضرورة استقلال الحركة الوطنية عن الخديو نتيجة للسياسة المتقلبة التي كان يتبعها تجاهها.

أما فريد فإنه لم يرتبط بالخديو بأية روابط تقيد من حركته أو تفرض عليه مواقفا معينة، فبحكم انتمائه لطبقة كبار الملاك استطاع إمداد العمل الوطني بالمال دون أن يلتزم بأي موقف مع الخديو ، لذلك اتخذ طابع الخلاف بينه وبين الخديو أبعادا واسعة نتيجة لرفضه إيجاد علاقة معه شبيهة بالعلاقة التي كانت قائمة بين الخديو ومصطفى كامل.

لقد ورث فريد مبدأ معارضة التعامل مع الخديو من لطيف باشا سليم الذي كان يرى في الخديو رجلا أنانيا يفضل منفعته الشخصية على الصالح العام.

مما سبق يتضح أنه إذا كان الخديو قد أمد مصطفى كامل بالمال فإن ذلك لم يحدث مع فريد حتى في أحرج اللحظات إلا في أواخر حياته ، فمع أن فريد نفى الشائعات التي قيلت بأن الخديو ورئيس الوزراء محمد سعيد قد أرسلا إليه ثلاثمائة جنيه لمساعدته على الخروج من مصر ، واستغرب مثل هذا الأمر بقوله في رسالة له إلى الخديو " إني أترفع عن قبول أية مساعدة منكم ولو كنت في أحط دركات الفقر ..

وإني لا أتـل منكم أية مساعدة ما دامت مهمتي هي الجهاد في تحرير البلاد من الإنجليز ومن كل من يعاونهم على توطيد أقدامهم في مصر كائنا من كان(١).

ومع ذلك فإن الظروف التي أحاطت بفريد في أواخر أيامه جعلته يقبل مساعدة الخديو له بالمال ، ويبدو ذلك واضحا فيما كتبه في مذكراته تحت عنوان " من أين اعيش " أنه أخذ نقودا من الخديو ، ولا عيب في ذلك لأنه خديوينا الشرعي ، ولا يعتبر أخذ الفلوس منه خيانة".(٢)

يضاف إلى أوجه الاختلاف السابقة بين مصطفى كامل وفريد أن مصطفى كامل جمع بين زعامة الحزب وإدارة جرائده واستطاع أن يديرها بكفاءة أما فريد فقد تفرغ لقيادة الحزب وترك إدارة اللواء للشيخ عبد العزيز جاويش ، كما ان جريدتي الحزب الإنجليزية والفرنسية قد أغلقتا.

هذا عن دور مصطفى كامل ومحمد فريد في زعامة الحزب الوطني واوجه الاتفاق والاختلاف بينهما ، والتي يتضح منها أن كلا منهما كان مثالا للتضحية والإخلاص من أجل القضية الوطنية فقد عبر كلاهما عن إرادة الأمة المصرية خير تعبير ، وقام بتوجيه الجماهير المصرية فكريا ونفسيا ، وأضاء لهم الطريق الذي مهد لقيام ثورة ١٩١٩.

---

١) مذكرات محمد فريد جـ ١ القسم الأول ص ٢

٢) مذكرات محمد فريد ، ملف رقم ٧ ص ١٩٦.